# ذكريات

## مما وعته الذاكرة

عبدالعزيز بن عبدالله السالم

# ذكريات

# مما وعته الذاكرة

عبدالعزيز بن عبدالله السالم

*فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر*
السالم، عبدالعزيز عبدالله
ذكريات مما وعته الذاكرة./ عبدالعزيز عبدالله السالم. - الرياض، ١٤٣٠هـ.
١٩٨ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٣-٩١٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨
١- السالم، عبدالعزيز بن عبدالله - مذكرات ٢- المذكرات
أ- العنوان
ديوي ٩٢٠ ١٤٣٠/ ٨٠٧٢

رقم الإيداع: ٨٠٧٢/ ١٤٣٠
ردمك: ٣-٩١٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم



# المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

# مدخل

كيـف يمكن تصنيف الذكريات أو كتابـة المذكرات أو مايطلق عليـه ترجمـة حياة؟ ففـي هذا العصـر الذي نعيشـه كثرتْ هذه المصنفـات في مجالات متعـدّدة، وألون متباينـه، وصور متنوعة، وأصبحـت السـيرة الذاتية لوناً من ألـوان الكتابة، وفناً من فنون القـول الأدبـي والثقافـة الخاصـة، وهي فـنّ متقدم فـي حياتنا العربيـة: نجـد نموذجاً لهـا فيما كتبـه الإمام الجليـل ابن حزم فـي مؤلفـه الشـهير: (طـوق الحمامة) وفيـه تحدث عن أشـياء صريحة تحاشـى البوح بهـا كثير من العلمـاء المرموقين أمثاله، فقد تحدث عن نشأته في محاضن الرفاهية ورغد العيش، وصوّر حبـه العفيف فيما يشـبه الاعترافات الذاتية. حتى لقد أصدرت دار الهـلال كتابـه عن حياته تحت عنـوان: (الحب عند ابن حزم) مع أن عنوانه الأصيل: (طوق الحمامة) أجمل وأرقّ وأرقى تعبيراً

من العنوان الذي اختارته تلك الدار بديلاً عنه.. ولعل عنوان دار الهلال مستوحَى من دلالة مضمونه، وقد ألّف عن هذا الإمام الشيخ محمد أبو زهرة كتاباً كبيراً. كما فعل رحمه الله مع نخبة من أئمة علماء المسلمين المرموقين.

ويحكم الصِّلات المتينة بالغرب دراسةً وإقامةً وثقافةً، وفي مختلف الوجوه: تأثّر العالَم العربى بكتابة السيرة الذاتية، ومن خلال الروابط المتينة التي ربطت بين الشرق والغرب والتأثر ثقافياً واجتماعياً وحضارياً بالمدّ الغربى، فقد كثر كتّاب السِّير الذاتية. سواءً كان ذلك تأثراً بالغربيين ومجاراة لهم أو انسجاماً مع موكب التيّار الثقافي الذي فرض نفسه ومواكبته، فإن كثيراً ممن كتبوا عن سِيَرهم الذاتية: كتبوها دون تكلف في صياغتها ولا شطط في روايتها، كما هو أكثر كتّابنا العرب الكبار إلا من شذّ منهم، والهدف الأساسي من الكتابة الارتقاء بالذوق العام، والتسامي بالأخلاق. من خلال نماذج سلوكية مقبولة الأداء. سامية الهدف. ذات رسالة لها مُؤدّى: يحوطها سياج من الخُلق الرفيع، والأدب المرموق، فالتسابق يكون في التفوق فيما يُفيد

ويرتقـى بالـذوق، وكذلـك يكـون التنافـس علـى الأداء الأصيل والمسـتوى المتميـز.. وعلـى هذا الأسـاس تتحدد رسـالة السـيرة الذاتيـة وربطها بمقاصدهـا، وأهمّ العوامل فيهـا: الصدق فيما للكاتب وما عليه، والإخلاص في تقديم الصورة الواقعية لحياته، مع مراعاة الذوق العام واحترام مشـاعر القراء. فإذا كان منفلتاً فـلا يكتـب نزواته ويكشـف عورته أمام الملأ، وإنما يسـتر ما صدر منـه في جنوح المراهقة: من الكلام البذيء والأسـلوب المكشـوف الذي يمثل السقوط ويشوّه صورة الكاتب.

كما يتجسـد ذلك في بعض التراجم الذاتيّة ومنها: (الخبز الحافـي)، فمثـل هـذه السـيرة لاتُعطـي سـوى صـورة مشـوّهة لصاحبهـا، وقد جاء في الأثر: إذا بُليتُم فاسـتتروا؛ لذا فإن على الكاتب أن يسمو بنفسه وقرائه عن السقوط في تعبيرات تفضح سـلوكه، وتجرح أحاسـيس القراء، وقد جاء في الحكمه: ليس ما يدخل الفم هو الذي ينجّسه، وإنّما ما يخرج منه، وكذلك القلم إذا كتب ما يجرح الذوق السليم، ويشذّ عن الأخلاق القويمة فإنه كذلك، وإذا سـقطت القيم فماذا يبقى للإنسان؟! ولو أن معتوهاً معتـلّ العقل سـار في شـارع عام وهـو عريان، يرى الناس سـوأته

فبماذا يحكمون عليه؟ وكذا لو أن كاتباً معتل الذوق فضح نفسه بما ارتكبه من حماقات أعلنها على الناس في سيرته. أليس في هذا مساس بكرامة القراء، وينطوي على تحديات لمشاعرهم، كما أن فيه اعتداءً جارحاً على الذوق العام؟!. وبعد: فإن ما أقدمه بهذا المدخل لا يُمثل في تقديرى سيرة حياة، ولا يرسم مَسيرة مواطن تمتدّ خُطاه إلى مرحلة الثمانين من العمر، وإنما حسبه أن يُمثل خطوطاً عريضة لمسار حياة فرد من أبناء هذا الوطن.



# مقدمة

الإنسان بطبيعته مرتبط بالمكان والزمان ارتباطاً وثيقاً متأصلاً في ذاته، لا فكاك منه، ولا محيد عنه منذ بداية استهلاله في هذا الوجود وعيشه في هذه الدنيا، فارتباطه بالمكان بحكم أنه يضم الأرض التي ولد بها، والبيئة التي تربّى فيها، والمجتمع الذي نشأ بين أفراده، وكلٌ من الأرض والبيئة والمجتمع لها مؤثرات قوية في تكوين ذاتية الفرد وتكييف مساره: ذلك أنها تصوغه في طابعها، وتؤثّر فيه بطبيعتها، وتتأثر اتجاهاته من خلالها. كما أنها من جانب آخر بمنزلة الإطار الذي يتحرك داخله، والمدى الذي يسعى في نطاقه، أما ارتباطه بالزمان، فلأنه يمثل نموّه المطّرد على امتداد المراحل الزمنية التي يمّر بها في مسار عمره. كما يمثل السعي من جانبه بالانطلاق في ميدان الحياة ومجال العيش، فمن المعلوم أن الإنسان يمرّ في واقعه بمراحل عُمْرية متعددة في أدوار حياته كلها. منذ بَدْء تكوينه

الذاتـي في المراحـل الآتية: في المهد والطفولة والصِبا والشـباب والكهولة والشيخوخة. حتى يبلغ مرحلة الهرم والرحيل عن دنياه، وفـي مراحله التكوينية تلك: تتحدد مداركه الذهنية، وتتجسـد قواه الجسـمانية عَبْـر دورات متتابعة متنوعة ومتعددة. بحسـب الدورات الزمانية، من ضعف إلى قوة، ومن قوة إلى ضعف، حسب الأدوار التي تمرّ به والمراحل التي يبلغها، وفي نطاق هذه الدائرة الفسـيحة: يتحـدّد مـدى أثـر المكان وتأثيـر الزمان فـي صياغة الإنسـان، والكتابة فـي مجال السـيرة الذاتية تحفُّها تسـاؤلات، وتقـف أمامها عقبـات، قد يكتنفهـا غموض في بعـض المناحي، وقصـور في مواقع أخـرى، وهى ترتكز علـى الصراحة التامة في التدويـن، والصدق في تسـجيل الأحداث بواقعيـة، وتحري إبراز الواقـع كما هو واقع، في صراحة لايكتنفها إسـفاف في التعبير، ولا جرح للذوق العام، ولا خدش للسلوك القويم.

مَنْ أنتَ؟ سؤال يجري طرحه في أحيان كثيرة بقصد معرفة التكوين الذاتى لفرد من الأفراد بصرف النظر عن مكانته العلمية أو الاجتماعيه أو الفكرية، وهو سؤال يبحث عن جواب: قد يُطرح مثل هذا السؤال على المرء في أي مناسبة من المناسبات، أو تحت

أي ظرف من الظروف، وقد تكون الإجابة لتساؤل فرضه موقف من المواقف أو اقتضته حالة من الحالات، وفي كل الأحوال وفي أي مجال. ماذا سوف يكون الجواب؟ السؤال في ابتدائه سهل، والجواب في نهايته صعب، والصعوبة هنا مردّها إلى الاختلاف - الذي قد يبلغ حدّ المفارقة - بين الأفراد الذين يجري طرح السؤال عليهم، بحسب التفاوت بين الشخصيات ومستوياتهم، وتنوّع توجهاتهم في الفكر والثقافة والإدراك، والمكانة العلميه والمنزلة الاجتماعيه والرؤية الذاتية.

وقد تختلف صيغة السؤال أو طبيعة الطرح وَفق وضع رؤية السائل أو مكانة المسؤول، وعلى أي لون يرتكز هذا السؤال؟. ومهما تعددت الأسئلة، وتنوعت الطروحات، فإنّ الجواب - وإن كانت له خصوصيته - يحمل في أطوائه معنىً يتخطى إطار هذه الخصوصية ليشمل حالة عامة. تندرج تحتها صور عديدة تمثل حقيقة: (الأنا) المتجسدة في الذات، وهو سؤال يطرح نفسه على كثيرين.

عندما يتساءل المرء في حالة من حالاته الوجدانية، أو حالة من الوحدة النفسية التي ينتج عنها سؤال: (من أنا؟)،

والسؤال قد تترتب عليه إجابةٌ في سطور قليلة، وقد تمتدّ لتستغرق صفحات طويلة، ولا يحسبنّ أحد أنه سؤال ينطوي على أنانية محضة، فالأنانية مرفوضة، وهي ممقوتة. لايرضاها الإنسان السوي لنفسه، ولايرتضيها للآخرين، فالأنا هنا ليست للاعتداد بالنفس، ولا للإدلال على أحد بتميز، وإنما لتوضيح الموقف وتجلية الحقيقة.

وكلمة (أنا) أول مَنْ قالها إبليس لعنه الله حين أمره الله تبارك وتعالى بالسجود لآدم عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. فحقّت عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ومن الطبيعي أنه اذا استدعَى واقع الحال أن يُقّدم شخص نفسه، فلا بد أن يبدأ التقديم بكلمة: (أنا) فلان، وتعليل وجاهة التحدث بالأنا: أنه لاينوب عنها في التعريف مايُغنى عن استعمالها. وفي ضوء ماتقدم – ومن دون صيغة الأنا – قد يكون من الجائز لغيرى أو لي أن أقدم الصفحات الآتية؛ استجابة لتساؤلات كانت مطروحة، أو قد يتجدد طرحها في عديد من المناسبات.

وأبـدأ مـن حيـث بدايـة النشـأة: لـم يكن فـي الزمـن الذي ولِـدتُ فيه وأقراني شـهادات ميلاد يُسـجل فيهـا المولود لتحديد تاريخ ميلاده بالسـاعة واليوم والشـهر والعام، وإنما يظل ميلاده مجهـولاً، فـاذا احتاج إلـى تحديد عمره فإنّ أسـرته تربط تاريخ ميلاده بعام معيّن.

قد يرتبط بحدث من الأحداث او سنةٍ معروفة من السنوات، ولذا فإنه يُقال عن الشخص: إنه ولد سنة كذا أو عام كذا. بحيث يكـون هناك حدث معروف أو شـهرةٌ لعـام معيّن، فإن لم يكن هذا ولا ذاك، فإنـه يظـل مجهـول التاريـخ، وهذا يمنحـه حرية أكثر فـي زيـادة عمره في الصِغَـر، وإنقاصه في الكِبر، أمـا العام الذي ولدتُ فيه حسـبما هو مستفاض من أحاديث الوالدين والأقارب، فإنـه يقترن بالعام الـذي أتم فيه الملك عبدالعزيز تتويج جهوده الموفقـة بتوحيـد جميع مناطق هذه البلاد الواسـعة تحت اسـم المملكـة العربيـة السـعودية، وهو عـام ١٣٥١ هجريـة الموافق لعام ١٩٣٢ ميلادية.

لكن يظل هذا التاريخ محصوراً بين قوسين تحيطهما علامة استفهام؟ هل كانت الولادة في بداية عام التوحيد؟ أم في وسطه؟

أم فـي نهايته؟ هذا مالم يسـتطع الوالدان والأهلون التمكن من تحديده بالدقة، وعلى كل حال فإنه يكفى أنهم استطاعوا حصره في دائرة حدث مميّز لارتباطه بحدث مهمّ: هو عام توحيد بلادنا الحبيبـة بكل أطرافها المتباعدة ومسـاحاتها الواسـعة، وعلى كلٍ فهو فَألٌ حَسَـن أن يسـتهل مواطن ولادته مع ولادة هذا التوحيد لمناطق هذه البلاد المترامية الأطراف المتباعدة المناطق.

وكانـت الحياة الاجتماعية والاقتصاديـة، إذْ ذاك في منتهى البسـاطة، بل في غاية الخشـونة والتقشـف، فلم أُولـد في مِهاد مـن حريـر ولا تلقفتني العنايـة الطبية في مستشـفى مرموق: تسـتقبلني فيه غرفة عمليات مجهّزة بـأدوات التعقيم الصحي، وأجهزة الراحة والرفاهية للمواليد المحظوظين، وإنما ولدتُ كما يولـد عامة المواطنين، اسـتقبلتني حَفنة من تـراب الوطن الذي تشـكّل منه تكويني، وانصهر فيه كياني، واختلطت به مشـاعري، وتشكّل فيه وعيي، وعلى هذه الأرض درجت، وفي رحابها تفتّحت عينـاي علـى الدنيـا، وعلى أديمها مشـيت، وفـي بيئتها نشـأتُ، وأول مـا وعيتـه أن كيانـي الممـزوج بِتـراب هـذا الوطـن الكبيـر:

يجعلني لا أُقيم وزناً للأقليمية الضيقة، أو الانحياز الشاطح لبلدة دون أُخرى داخل الوطن؛ لأني أرى في هذا التمايز المقيت تعطيلاً للإحساس الوطني الشامل للوطن بكامل ترابه واتساع نطاقه، ومن هنا كانت نظرتي الواقعية متشبّعة بالروح الوطنية المتسامية على التجزئة والتفرقة، فمشاعري مزروعة في أرض وطني الحبيب الذي تحمل رايتهُ شعار التوحيد، وأحاسيسي مرتبطة بمجتمعه الكبير، وذلك نابع من شعوري بأني فرد من أفراده، ومواطن من مواطنيه، وليس هذا تعبيراً عن رؤيتي الشخصية فحسب، وإنما هو قاسم مشترك بين مواطني هذه البلاد جميعاً إلاّ مَن شذّ عن هذه القاعدة المتوارثة، ولكل قاعدة شواذ، والمنحرفون قِلّة لا يُلتفت إليهم في مواجهة إِجماع الأمة التي هي الأساس والمعوّل عليه في العلاقات الوطنية، والحقائق تُبنّى على القواعد الثابتة، لا على الشذوذ المستهجن.

والوطنية شعور يتربّى عليه المواطن، فينشأ على حب الوطن والتفاني في خدمته، والوفاء لوطنيته التي هي جزء من كيانه ونزعة من توجهاته، فهي أهم مايتأصّل في كيان الإنسان، ومن خلالها يرى في مواطنيه إخوة له، وفي وطنه مَوْئلاً لهم أجمعين، ومن هنا يشعر بمعاني المواطنة تبعاً لأهمية الوطن.

وفي كل الأحوال، فإن تاريخ الولادة أو مكانها مسألة تختص بتسجيل المواليد في دفاتر الإحصاء وإثبات هُوية الوليد. أما النظرة الشاملة، فهي تنظر إلى المدن والقرى على أنها متماثلة. تنتمي إلى كيان واحد تتشابه أوضاعها ومسيرتها. كما أنها منصهرة في مفهوم واحد. تجعل مواطن هذه البلاد يعتز بانتمائه ومواطنته التي تشمل كيان الوطن على اتساعه: أينما ولد في غَربه أو شرقه، أو شماله أو جنوبه، فالأرض كلها مساحة واحدة، والمواطنون يمثلون أسرة متّحدة، وهذه النظرة الشمولية ثابتة في نفوس أفراد مجتمعنا، ومنها ينطلقون في حياتهم على اتساعها. تمثلها وحدتهم التي هي مناط توحيدهم.

أنا لا أكتب قصة من نسج الخيال، وإنما أسجل واقعاً عشته وتعايشت معه، ونشأت في أفيائه وتكيّفتُ في ظله، وأعتمد - بعد الله- في هذا التسجيل الذهني على ما يشبه امتحان الذاكرة في تدوين هذه الذكريات التي لم ألتفت إليها إلاّ وأنا في مرحلة الشيخوخة التي يقلّ فيها الحفظ، ويكثر فيها النسيان، وقد احترت كيف أستوحيها من الماضي، وقد تفلّتت من ذاكرتي، فكان

علـيّ أن أعود إلى الـوراء لأُجهدها في التذكر، فتأتي التداعيات؛ لترسم مشهداً كان غائباً عنها متوارياً في زواياها.

وهـذه التداعيـات تنبعـث في الذهـن على إثر حـدث، أو في أعقـاب إِثـارة موضـوع، أو مرور مناسـبة، أو بزوغ لمحـة طارئة، أو خاطرة سـانحة: يهجس بها الذهن، فتتولد عنها إضاءة تتجدد مـن خلالها الذكرى، فيحـدُث حضور الصـورة المغَيَّبة في أعماق الذاكـرة، ومـن هنا تجيء اسـتعادة الذاكـرة، وتأتـي تداعياتها لما سبق أن اندثر: فـكأنّ خطوطاً وهميـة غيّبها الزمان، أو رسـوماً تجاوزها الذهن، وعند التذكر يبدأ الوعي في اسـتعادة ما يشـبه الأَمشـاج الذهنية الراكدة في اللّاوعي، فيستدرجها إلى السطح الذهني لتصبح في إطار الوعي المحسوس، فتشبه الشكل المنظور، وحينئذٍ يسـتطيع الكاتب أن يسـتوحي الفكـرة التي كانت غائبة عنه؛ لتُشرق في ذهنه من جديد.

وقد يعتري الذاكرة شـحوب ينكمش معه عطاؤها ويتلاشـى مَدّها، ويخبو بريقها، فيخفت صداها، ويتوقف نبضها، وتتعطل فاعليتهـا، وعنـد ذلك يُصـاب الكاتب بحيرةٍ يتوقـف معها مِداد قلمه وضياء فكره، فيتسـاءل بينه وبين نفسـه: كيف يسـتعطف

هـذه الذاكـرة المسـتعصية العطاء؟ وكيـف يسـتدرجها لتبوح له بأسـراره، وتسـعفه بما سـلف من وقائع وأحداث؟! وتزداد الحيرة حتى يأذن الله تعالى بسـخاء الذاكـرة فيتحقق العطاء، وتنهال المعلومات،وتنثال الذكريات.

وحينئذٍ يتسـنّى للكاتـب محاولة اسـتعادة مافاته في غمرة النسـيان، والتطّلـع لاسـترجاع ماضيـه فـي صورتـه السـابقة: ليتسـنى لـه من خـلال ذلك اسـتحضار الأحداث التـي مرّت به، والوقائـع التـي مرّ بها، وعنـد التأمل والتذكر تلـوح في مخيلته حـوادث تبـدو على سـطح الذاكـرة: احتفظ بها الذهـن، وها هو يحـاول أن يسـتعيدها بعد أن غطّى عليها تقـادم الزمان، وطغت فوقها أوضاع جديدة، وأحداث معاصرة.



# مراحل إنسانية

نعيش واقع الزمان مسافة ممتدة بين الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة، وبين هذه المراحل المتتابعة في مساراتها الحيوية، المتنوّعة في إيقاعها الزمني: تختلف كل مرحلة عن الأخرى في المسار العُمري بداية ونهاية. فالطفولة مرحلة ضعف شديد، تتصف بعدم القدرة الذاتية على مواجهة متطلبات الحياة وتكاليفها إلا بمساعدة الوالدين، ومَن في حكمهما في التربية والرعاية والتنشئة، وبعد المرحلة الأولى يبدأ التفتّح والتلقي لدى الطفل، ومحاولة تقليد مَن هو أكبر منه سناً والسير على نهجه.

ثم يحين دور المراهقة، فتكون مرحلة الشباب ، وهى أخطر مرحلة عُمرية؛ إذْ إنها تمثل دوراً من أشق أدوار الحياة التي تمر بالشاب المراهق والشابة المراهقة، فهذه المرحلة بطبيعتها الاستفزازية تتصف بالتهور الشديد والإقدام على ارتكاب الأخطار، واقتحام المجهول دون حساب للعواقب، ولا التفات

إلـى النتائج، وهى أشـبه بثـورة بركانية لدى فئة مـن المراهقين: تستفز الوالدين والأقربين، وتتجاوز حدود الاعتدال في التعامل مـع الآخريـن، وتختلف أدوار المراهقين باختلاف الأوسـاط التي يعيشـون فيها، والبيئات التي ينشـؤون في جنباتها، ويمتد دورها حتى اكتمال نضج الشباب، وهي مرحلة تتصف بالقوة والنشاط والحيويـة، وربمـا خالطها بعض التهـور اعتـزازاً باكتمال القوة، واستيفاء مقومات الفتوّة.

ثـم تأتـي بعدها مرحلة الكهولـة، وفي هـذه المرحلة تتجلى النظـرة البعيدة، وتقدير الأمـور بمقاديرها الصحيحة، ووزن كل تصـرف بميـزان الاعتـدال والنضج، ووضع الشـيء فـي موضعه المناسب دون زيادة أو نقصان.

ثـم تتلوهـا مرحلة الشـيخوخة، وهي مرحلة تتسـم بالوقار والحكمة وبُعد النظر، إلى جانب النظرة الواقعية التي تضع لكل مشكلة حلاً مناسباً، بحكم الخبرة وتجارب الأعوام المديدة.

وإذا كان لمرحلـة الشـباب جمالهـا وخلوّها مـن الهموم، فإن لِمرحلـة الكهولة أثرها في التعايش مـع أوضاع الحياة، والتعامل

مـع المسـتجدات برويّة وتأمـل عميق، كما أن لمرحلة الشـيخوخة كذلك جلالها وسـبقها في معركة الحيـاة، وخبرتها بأحوال هذه الدنيـا بتطوراتهـا وتغيراتها، وهكـذا نرى أن لـكل مرحلة دورها الـذي يمـرّ بـه الإنسـان، كمـا أن لهـا خصائصهـا ومسـارها في مجالات الحياة.



# مرحلة الصبا

كيف كانت حياتنا التربوية والاجتماعية، ونحن نودع مهد الطفولة بعد أن بلغنا مرحلة الصبا؟

في مدارج هذه المرحلة -على شظفها وصعوبة العيش فيها- بحكم الواقع الاجتماعي والجمود المحلي في تلك الآونة، إلاّ أنه كان لتلك الأيام مذاق خاص وسعادة غامرة على الرغم من عدم توافر أسباب المدنيّة. حيث لم يتم آنذاك التعامل مع منجزات الحضارة التي وفدت فيما بعد، فلم تبزغ شمسها بعد في محيطنا، فلا كهرباء ولا سيارات خاصة، ولا أطعمة معلّبة أو مثلجة، ولا شيء مما يدخل تحت بند الرفاهية التي يعيشها الجيل الحاضر: إلى جانب الحياة المحدودة، فكنا لا نعرف تغيير ملابسنا بالشكل المعهود الآن، ولا كنا نعرف النظافة والاستحمام إلاّ في أوقات متباعدة ومناسبات متفاوتة، ولذلك فإنها تتسخ ملابسنا، فلا نجد غسالة تغسلها، ونظل كذلك نلعب في التراب، وفي أجواء

تحمـل الغبار، ونحن نتكيّف مع تبدل الأجـواء وتغيّر المناخ، ولم نكـن نتعامل مـع الصابون وأدوات التنظيف. كمـا لم نكن نعرف المناشـف، ولا النـوم على الأسـرّة، وإنما كنا ننام فـي الليل صيفاً على حشـيّة خشـنة تسـمى: (مطرحه) ومنها اللحاف والفراش، ومما يسـعدنا النوم على أنغام (المحّال) التي تجرّها السواني من البئـر، حين تحمل المـاء إلى الحوض المعد لاسـتقبال الماء، ومنه ينطلـق إلـى البِركْة، وهى موضع يتجمع فيه الماء المسـتخرج من البئر، فاذا امتلأت هذه البِرْكة (بِكسر الباء وسكون الراء): فُتحتْ على البساتين والمزارع التي تحوي النخيل والأشجار.

أمـا السـواني فمصطلـح يَعنـي الحميـر والثيـران والبقـر والجِمـال، وهى تجذب المـاء من قاع البئر لسـقي المزروعات التي عليهـا المعـوّل فـي الغـذاء الطبيعي، أمـا المحّال بتشـديد الحاء (واحدتها محّالة) وهي تُشبه النواعير في صوتها المنَغّم، والمحّالة هذه مسـتديرة في حجم دائري ويجرى اختيار واحدة من بينها. يُوضـع بها محور سـميك تدور خلاله في حالة السـقي فتُحدث صوتاً شـجياً يُسـعدنا سـماعه وننام علـى أنغامه، ومع انسـياب الأنغـام عَبْر هدوء الليل تتجاوب أصـداء هذه: ( المحّالات) حيث تتنـاوح في ربوع القرية لا سـيما في الليالـي المقمرة، حيث يبدو

الإحساس بها أكثر، وتستشرف النفس للتطلع لهذه الأنغام الشجية، ومع انسيابها الهادئ والهواء العليل نسعد بلذة النوم وهناءة الحياة، ولا نغبط أحداً أسعد منا.

هذه الحياة الرتيبة حبيبة إلينا، ولعل رتابتها ومحدوديتها مما حببّنا فيها. فلا تتخللها أصوات ماكينات أو صخب مصانع، ولا شيء مما يعكر هدوء القرية، وانسجام نسمات الهواء الطريّة مع ذلك الهدوء المريح والجو الهادئ والطقس الطبيعي العليل الذي لا يعرف ضجّة المكيفات، ولا هدير المراوح، ولا ما يتصل بمدنية هذا العصر من أدوات ووسائل مرفهة، وإنما تعتمد الحياة على طبيعة هادئة وأصوات خافتة وراحة نفسية دائمة، وفي ظل هذه العوامل الطبيعية العادية يعيش الفرد في طقس يشعر فيه بالهدوء والطمأنينة وسعادة الحياة.



# النشأة

كانت نشأتي كأمثالي من أبناء جيلي، وهي نشأة تتشابه معظم أُسرها، وتكاد تتماثل في طرق معيشتها ومستويات حياتها: هذه هي الصورة العامة لا يُستثنى من ذلك إلاّ ما يتخللها من فروق ظاهرة وإن تكن شبه متساوية، وذلك لأن العصر الذي سلف لم تكن فيه هذه الحضارة التي نعيشها، ولا المدنيّة التي نحياها في واقعنا المعاصر، فكل شيء تبدّل خلال عهدنا الذي نحياه، فلم يكن في خيال الآباء والأجداد: هذه المظاهر التقدمية التي يعيشها جيلنا المعاصر، بل لم تكن تخطر لأحدهم على بال.

ولذلك كانت فروق الحياة بين المواطنين غير واسعة، كما هي الحال الآن، وفي العهد الذي أشرتُ إليه كانت أسرتي تمثل الأسرة المتوسطة الحال، لا غنىً يُطغي ولا فقر مدقع، وذلك بمقياس الزمان الذي نشأتُ فيه والمجتمع الذي عاصرته.

علـى أن مما يحسـن تسـجيله في هـذا الصـدد: أنّ الفوارق الاجتماعية والمادية في جيلنا لم تكن واسـعة، كما هو الحال في واقـع جِيلنـا الذي مضى منه أكثر ممـا بقي، وهو الآن يعيش في ظـل الحضـارة الغربية المعاصرة، ويحيا في مـداد الرفاهية التي وفّرتهـا هـذه الحضارة الطارئة على نطاق واسـع تجـاوز بلدانها تصديـراً إلى بقية بلدان العالم، وتجاوباً مع المدّ الحضاري، فقد جـرى من خلاله الانفتاح على أهلهـا ومدنها وقُراها، والاندماج فـي أجوائها والتكيف مع طابعها، والسـير في تياراتها المختلفة، والتفاعل مع معطياتها المتنوعة.

علـى عكـس ما مضى من شـحّ فـي الإمكانـات وضحالة في المعطيات، ولذلك فقد عانى الجيل المخضرم الذي عايش جيلين: أحدهمـا ارتبـط بالماضـي الـذي كان مصـدر معاناة فـي أحواله الماديـة، وفي حياتـه الاجتماعيـة، وفي كل ألـوان الخدمات التي كانـت محـدودة في نطاق لايتّسـع لبحبوحة العيـش، ولا يرتقي إلـى رفاهية الحياة: قياسـاً بمواكـب الحضارة الوافـدة وزخمها، وانحسـار ظلال المعيشـة المحاطة بالمعاناة والتقشف، وتكيف مع تلـك الظروف الصعبة بالنسـبة لواقع الحال، أمـا الجيل الآخر الـذي هـو امتداد لـلأول، فقـد انفتح علـى الحضارة من أوسـع أبوابها ونوافذها.

# البلدة

أما البلدة التي ارتبط بها كياني، وكان لها انعكاس على مشاعري، كما أنها مقر أسرتي: أعمامي وأخوالي وأقربائي، فهى بلدة هادئة لم تعرف ضجيج الحضارة ولا مدنّية الغرب، وقد كانت عاصمة من قَبل، تتكئ على تاريخ ماضٍ مجيد، ثم تحولت مع دورة الزمن وتعاقب العهد إلى بلدة أشبه بقرية محدودة الحركة والمساحة: تفخر بماضيها قبل بضعة قرون، ولا تبعد عن عاصمة البلاد سوى مسافة محدودة، وقد اختُزلت هذه المسافة مع توسع العاصمة وامتداد العمران فيها، وفي هذه البلدة كانت بداياتي الحياتية، ففي كُتّاب القرية تعلمت أبجدية الحرف، واستطعت قراءة القرآن، وكانت حدود هذا (الكُتّاب) ختم القرآن الكريم وبه تنتهي رسالته التعليمية بحكم واقع العصر الذي استقبلناه في طفولتنا.

لكنّ الحياة لا تتوقف، والزمان يمضي بالأحياء في مساره نحو آفاق أُخرى لها امتداداتها، وهي تمثل نقلة نوعية في دنيانا التي نعيش فيها ونعايشها، وهي تطوينا في مساراتها ومنعرجاتها، كما تجري بذلك الأقدار.

انتقلتُ أنا وأخي محمد -رحمه الله- من قريتنا إلى مدينة أخرى أكبر من البلدة التي ألِفناها وتلقّفتْ طفولتنا، ووضعتْ لنا أول مَعْلَم في حياتنا التعليمية، ولم تكن رحلتنا إلى تلك المدينة سهلة ولا مريحة، ففي ذلك العهد لم تكن تُعرف المواصلات العامة المتمثلة في السيارات، كما هو واقع هذا العصر الآن. فضلاً عن الطائرات التي كان وجودها بوصفها وسيلة مواصلات يشبه الحلم، وكان الوالد يعيش في تلك المدينة التي نقصدها بطلب منه لحضورنا إليه للالتحاق بالمدرسة الحكومية المفتتحة بها حديثاً، وهى التالية في التعليم للكتّاب القديم.

وكان للوالد -رحمه الله- بعض الإبل ترعى في مراعي قريتنا، فطلب من أحد رعاتها واسمه -إنْ لم تخني الذاكرة- ظافر: أن يُحضر راحلة من إبله، ويرحل بنا إلى مدينته، وقد أحضر الراحلة وفوقها: (خُرج) ينقسم إلى قسمين متوازيين: على يمين المطيّة وشمالها، وهو قائدها الذي يتوسط في (الشداد) في المنتصف.

وحانت ساعة وداع الوالدة وأختنا (ابنتها)، ولاتسل عما حدث، فقد انسكبت العبرات، ثم تحولت إلى بكاء ونشيج لم يغسله سوى دعاء الوالدة، وتجلّدها أمامنا؛ لكي تخفف عنا آلام

الفـراق، وإن كانـت تعانـي داخلها حسـرة عارمة لكنهـا كفّت عن البكاء؛ لئلا يُؤثر على سفرنا.

أمـا أختنـا لأمّنـا فقـد انفجرت فـي نحيب متواصـل، فهي رقيقـة بطبعها، ولذا فإنها لم تتماسـك أمـام فراقنا، في حين أن الوالدة -رحمها الله- حاولت السـيطرة على عواطفها وتثبيتها، وإشـعارنا بأن ذهابنا للدراسة سـيفيدنا، ويصنع منا رجال الغد، وقد تشـبثنا بهذا الأمل، وإن كانت الدموع تسـابقنا، فتسيل فوق خدودنا، وتغرق بها عيوننا.

أتذكـر يـوم الوداع لأول مرة في حياتـي، لأول رحلة أقوم بها، وأنـا طفل صغير إلى بلدة أخرى في منطقة تعدّ في ذلك الوقت نائيه وبعيدة جدًّا؛ لعدم وجود الطرق المعبدة والمواصلات المهيأة، ولنُـدرة السـيارات المسـتخدمة بـين المناطـق، وأتذكـر كيف بكت الأخـت بـكاءً شـديداً، وهـي تحتضننـي وتحتضن أخي، وتأسـى على الفراق، وكيف تجلّدت الوالدة الوالهة عليّ وعلى أخي، وهي تضمّنـا، وقلبهـا يتمزق لفراقنا، ولكنها صبـرت أمام هذا الفراق الحتمـي، وهي تـداري عبرتها أن لا أراها أنـا وأخي محمد الذي يرافقنى في هذه الرحلة.

وقد خَشيتْ أن تضعف أمام ابنيْها فتؤثّر عليهما. لذا فقد تظاهرت بالتجلد وتذرعت بالصبر، فهي تريد أن ترانا نبتاً مزهراً في حقل الرجولة المبكرة، ومن أجل هذا الهدف السامي تحملتْ البعاد وبرغم ألم الفراق، فهي تتطلع إلى بنيها الثلاثة بأن يعود الواحد منهم في صورة شاب محمّلاً بالرجولة، محتملاً للمسؤولية، وهذا الموقف يمثل حكمة الأم المربية التي تكتم عواطفها وتداري دموعها: بتجلدها لغاية نبيلة تدركها ببصيرتها، وهي تنظر إلى مستقبل بعيد: هو المستقبل الذي لا بد أن تُعِدّ أبناءها الثلاثة لمواجهته، وألا تقنع ببقائهم بين أسوار هذه القرية، وقد سبقنا الأخ عبدالرحمن -رحمه الله تعالى- ولا بد من خطوة أو خطوات تمتد بهم إلى حياة أفضل وتعليم أنسب، ولم يكن السفر على الأخوين فيما بعد سهلاً، فهما يكابدان ما تكابده الأم من عاطفة جيّاشة، وما بدا من الأخت من نشيج جعلهما يبكيان بحرقة لهذا الفراق، وأمام صبر الأم اضطر الأَخوان إلى إنهاء هذا الموقف المؤثّر، وبذلك بدأت الرحلة.

وكان ظافر قائد مسيرتنا الصغيرة ذكياً فطِناً لما يدور في أذهاننا نحن الصغيرين، فعندما رأى ما نحن فيه من غم وهمّ

وبكاء مكتوم، والمسيرة في أولها، في بداية الطريق، حيث لم يفصلنا عن بلدتنا سوى مسافة محدودة، قال لنا: ما هو الأقرب الآن: بلدتكم أو البلدة التي نقصدها؟ فقلنا بصوت واحد: بلدتنا أقرب، وهذا من البدهيات، وحسبناه سيعيدنا إلى بلدتنا لِما رأى من تأثّرنا ومدى حزننا. لكنه أجابنا إجابة لم تحتملها عقولنا الصغيرة، ولا إدراكاتنا المحدودة، وكانت الإجابة: إنّ المدينة البعيدة عنّا هي الأقرب إلينا، وهذه الإجابة من هذا البدوي بالمفهوم السطحي مغايرة للواقع الذهني.

لكنه كان يقصد أن البلدة التي خلّفناها وراء ظهورنا صارت أبعد من المدينة التي اتجهنا إليها، وأن التي هي وجهتنا هي الأقرب، وبعدما كبرنا وتعلمنا وعايشنا التطورات الجديدة، والانفتاح على العالم: أدركنا حقيقة ما قاله ذلك الأعرابى الذكي بالخبرة، المدرِك بالفطرة، وهو بهذه المقولة كأنه يعرف المثل الصيني الذي يقول: الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى، وانتباه ظافر إلى هذه المقولة لا شك في أنه مصدر ذكاء وإلهام، وربما نتيجة ممارسة وتجربة. لكنه بالتأكيد ليس نتيجة دراسة ولا تعليم، فهو لم يدخل مدرسة في حياته ولم يتسع فكره لأن يعرف المثل الصيني المشار إليه.

والإنسان في طفولته يستوعب ما يدور حوله، حتى لو كان لايدرك ماذا يدور، لكنه بإحساسه التلقائي: يتأثّر بالمعاملة التي يتلقاها بحسب نوعيتها وملامستها لمشاعره، فيحتفظ بالود لمن أحسن إليه، وبعكسه لمن أساء اليه، وتختلف المواقف في هذا الوضع باختلاف الأشخاص ونوع العلاقات ومَدى مكانتها، ويصعب على الإنسان أن يُصنّف نفسه داخل هذا الإطار، وكيف يصنع موقفَه ويصف أحاسيسه: لقد كانت علاقتي بوالديّ -رحمهما الله- وبإخوتى بنين وبنات، كعلاقة كل ابن بار بوالديه وكل أخ أصيل بإخوته: جميعاً لا تفريق بينهم في عاطفة مشحونة بالود الخالص والحب الصادق، وتفعيل وشائج القربى.

لكن العاطفة قد تميل إلى بعضهم حباً أو إعجاباً سواءً من أفراد أسرة أو من خارج نطاقها، فأما بالنسبة للأسرة فقد كانت لنا أخت من الأم من أسرة أخوالنا، وكانت ملاذنا نحن الصغار، وموضع اهتمامها بنا. نجد لديها عاطفة جياشة، ونلمس مبلغ حنوّها علينا وتبسّطها معنا تحت ظلال عواطفها، وتضّمنا في حِجرها، في هذا المحضن الرحيم المؤطّر بالعاطفة المخلصة.

ومن المعلوم أن الطفل في مستهل حياته أول ما يتفتّح وعيه على أفراد أسرته المقربين سواء من ناحية الأم أو من ناحية الأب، كما هو واقع الحال بالنسبة لوالديه وإخوته، ثم مَنْ يليهم في القرابة والنشأة، ثم تبدأ مداركه في استيعاب ما حوله، فيُعجب بنماذج من أقربائه أو من أفراد مجتمعه أو حتى من خارج المجتمع الذي يعيش في وسطه، ومن ثم تمتد نظرته فيما وراء الأسرة والمجتمع الصغير الذي يعرفه، وتبعاً لهذا التطور ينمو الإعجاب مع نموّ الفرد، ويكبر مع تمام إدراكه، ويزداد تواصل المعجَب مع المعجَب به.

وإذا كان الحب للوالدين ولأفراد الأسرة يولد غَريزياً مع الطفل، فإن الإعجاب يختلف عن ذلك مع مَنْ سواهم، فلا تتحدد معالمه في النفس البشرية إلا بعدما يكبر الطفل، ويتميز بعقله المدرك، وتتكون لديه ملكة التمييز الذاتي، فيدرك بعقله وأحاسيسه ما يجتذب حاسته، ويلفت نظره إزاء موضع الإعجاب من جانبه، وكلّما ازدادت سنوات عمره فإنه إلى جانب حبه الغريزي لوالديه وأسرته الأدنين، يظل قلبه يحتفظ بمساحة من الحب والإعجاب لمن يراهم بالنسبه إليه كذلك.

# الرباط الأسري

كانت الوالدة -رحمها الله- قد أنجبت بنتاً لها، وتم الانفصال بينها وبين زوجها، وهو ابن عمها، وبعده تزوجت والدنا، فأنجبت منه ثلاثة أشقاء كنتُ أوسطهم، وكانت الوالدة حفّية بابنتها الوحيدة إلى جانب احتفائها ببنيها الثلاثة فيما بعد، ولعل من بواعث التعاطف بين الوالدة وأولادها: أنها كانت تُعنى بابنتها الكبرى في جانب، وبأبنائها الصغار في جانب آخر من حيث السكن العائلي ومدة الإقامة.

ومع ذلك كانت البنت مشدودة إلى إِخْوتها من أمها برباط متين بحكم صلتها بأمها وبرّها بها، وكانت أختنا الحبيبة التي تكبرنا في السن قد تزوجت، ونحن صغار، فكانت تُولينا عِنَايتها وتمنحنا حنانها وحبها، وفي غياب تدليل الوالدة لنا -رحمها الله تعالى- كانت الأخت هي التي تقوم بهذا الدور وتضفي علينا من الحنان الكثير، فنجد مكاناً واسعاً في قلبها، وكانت بفيض عطفها علينا، وعاطفتها نحونا تغمرنا بكل مشاعر

الـودّ والمحبة، وكنا نبادلها حباً بحـب ووفاء بوفاء، وكانت بدورها فـي غايـة الصفاء والحنوّ والرحمة، وكأنهـا بمنزلة الأم الحنون، فقـد طبعهـا الله علـى الحنان الفطـري المتفجّر عطفاً ينسـاب فـي حنايـا الفـؤاد، ويلامس شـغاف القلـب، وكان مـن طبيعتها الهـدوء والطمأنينة، والصوت الخفيض والمحيا الباسـم والوجه المشـرق. كانت في منتهى العذوبـة كالأحلام الوردية. ذات وجدان نقي وشـفافية صافيه: يشعر مَنْ بحضرتها بجاذبية تشدّه إليها وتربطه بها.

حتـى لـو لم تكن المعرفة بهـا إلاّ من أول مـرة، ولا يعود هذا إلى جمالها الحسي، إنما إلى جمالها المعنوى، فهى عادية كبنات جنسـها. لكنها تتميـز بجمالهـا المعنوي الـذي لايدانيه جمال، وهنا تتجلّى مكانتها في نفوس أقربائها وعارفيها. كما تتجسـد المحبـة لها واللوعة بفراقها والحـزن لوداعها ممن عرفها، فكيف بمن تربطه بها صلة الرحم وأواصر القُربَى. كانت أختنا العزيزة رقيقة ناعمة، مفعمة بالأريحيّة ونكران الذات، بعيدة عن الأنانيه كل البعد: جوهرة متألقة لها لمعان وضيىء في حياة الأسرة وفي جوانب البيت. كانت إشـراقة نور تنسـكب في قلوب أفراد أسرتها،

وباقة ضياء في منزلها. ما أشدّ إضاءة الإشراقة، وما أقسى اختفاء الحبيبة.

هكذا في أيام معدودة ولمحات متلاحقة سكت الصوت الندي، وانطفأت الشعلة المتوهجة، وانتهت بذلك حياة وادعة، وانطوت صفحة ناصعة، وانتقلت إلى عالم الخلود الشابة الصالحة العابدة، وقد خلّف رحيلها في القلب الشجَى وفي النفوس الشجن، ولا أزال أحتفظ لها في وجداني -رحمها الله- بأسمى الحب وأروع الذكرى، فهي جوهرة اسماً ومعنى.

الإعجاب بطبيعته أقل حرارة من الحب. وإن كان يمثل مستوى من الحب الذي يدعو إليه الإعجاب، وعبر الحب والإعجاب لم أخرج عن دائرة الأسرة، وإن كان قلبي ينطوي على حب كبير لكثيرين وإعجاب أقل لعدد آخر، وإذا عُدتُ إلى مرحلة الطفولة وامتدادها مع الشباب، وحتى الكهولة، فإنى أختزن في ذاكرتى مواقف رائعة لأحد أخوالي، كان في ذاته مثلاً يُحتذى، وهو شبه الأمي: رائعاً في تصرفاته وصلاته مع الناس، فقد كان يتمتع بعقل كبير وحلم واسع. يرجَح بذلك عقول وأحلام

كثيريـن مـن المتعلمين. وكانت معاملته مـع كل الناس صورة من نفسـه السـويّة. سـواء كانوا من الأقربين أو الأبعدين، فهو يسير على نسـق رفيع من الحِلم والأناة. وتحمّل جنوح الكثيرين، وهو كذلـك رجـل لا تهزه الرياح المزمجـرة، ولا العواصف الهادرة عَبْر الأحـداث الجارية، والتقلّبات الاجتماعية المفاجئة، فثباته وعدم اهتمامه بالزوابع وعدم مبالاته بالمواقف الحادثة:

كل ذلـك مما يجعلـه موضع الإعجاب غيـر المحدود، ومحل التقديـر مـن الجميع، ومـن مواقفه أمـام المآسـي أن ابنه الأكبر توفي، وهو في ريعان العمر ونضارة الشباب، وفي مرحلة العطاء، فلـم يجزع ولم يتكلم كلمة تذمّـر على قدر الله، وإنما حَمد الله وشـكره حقّ شـكره وقابلَ هذه المصيبة المؤلمة بالرضا التام. حتى إنه هو الذي تولّى تغسـيل ابنه بنفسـة؛ لإيمانه المتين، وكانت له مواقـف إيمانيـة ورجـوليـة يسـتحق عليها الإعجـاب والتقدير. لا من الأسـرة فحسـب، ولكن أيضًا من المجتمـع الذي عاش بين أفـراده، والجماعة التي عرفـه أفرادها بهذه الصورة المتألقة. وكم تمنيتُ وتمنى غيري آخرون أن يكون لكلٍّ منهم من خلقه وحلمه وسلوكه مثل ماله رحمه الله تعالى.

# مجتمع القرية والمدينة

انتقلت أنا وشـقيقي - كما أسلفت - من قريتنا إلى المدينة التـي كانـت مقصدنـا، والهـدف من سـفرنا إليها وجود مدرسـة نظاميـة بدأتهـا الدولة في المـدن، وكنا قد عايشـنا في طفولتنا مجتمع القرية المحدودة المساحة القليلة السكان، وجاء الانتقال إلـى مجتمـع المدينـة الفسـيحة المسـاحة بمقياس ذلـك الوقت والأكثر سـكاناً، وإن كانت الحياة الاجتماعية في القرية والمدينة تكاد تكون متشـابهة ومتماثلة في التقاليـد والعادات، ومتقاربة فـي واقعهـا الاجتماعي، وفـي تكوينها الأساسـي، إلا أن مجتمع المدينـة أكثـر انفتاحـاً مـن مجتمع القرية وأوسـع مـدى لتقبل الجديـد مـن العادات والأوضاع، وهذا ما يجعـل حداً فاصلاً بين حياة مجتمع المدينه ومجتمع القرية.

وحـين ارتحلنا إلى المدينة التي بها الوالد الذي حرص على مقدمنا للالتحاق بالمدرسة الابتدائية التي افتُتحت بها: وجدنا الدراسة فيها تختلف بطبيعة الحال عن دراسة الكتّاب، فهي تقوم

على أساليب جديده ونظام متطور بالنسبة للواقع الذي خلّفناه وراءنا. كما يمثل هذا التفاوت بوناً شاسعاً بين ما كان مألوفاً في حياتنا القروية التي سلفت، وما سيكون في المرحلة الدراسية الحالية؛ لأن حدود التعليم الأوّلي محو الأمية. بينما التعليم على النهج الحديث يهدف إلى شق طريق العلم بحسب التدرج التربوي؛ لكي يضع الطالب على الطريق الصحيح والمستقبل الواعد، فإذا كانت الدراسة على الطريقة القديمة ترتكز على الطريقة التقليدية فتقتصر على معلّم واحد وفصل واحد، فإن الطريقة الجديده تقوم على عدد من الفصول ومجموعة من المعلمين: كلٌ يُدَرّس في مجال اختصاصه مجموعة من المواد الدراسية المختلفة.

كما وجدنا كذلك نوعاً من الانفتاح التعليمي والاجتماعي، وكانت هذه النظرة بالنسبة لنا تجسّد انفساحاً في الرؤية وتطوراً في العلاقات الإنسانية، وتجديداً في المفاهيم الاجتماعية، وكان الوالد تغمده الله بواسع رحمته: يضمّ بيته بعض الجواري اللاتي يستوعبهن ذلك الوقت، فقد كان نظام الرق سائداً في ذلك العهد، وهو نظام مستساغ لدى الأسر الكبيرة ورجال الأعمال خاصة،

وقد انشغل الطفلان بالمظهر الجديد وأسلوب الحياة التي لم تكن من قبل مألوفة لديهما بهذا التجديد في نظام الأسرة التي بدأ التناسق مع أفرادها والانسجام مع نظامها.

كما انشغل الطفلان أيضًا بما يحيط بهما من بيئة جديدة في البيت وفي المدرسة، ومما لا أنساه أننّا ونحن برفقة الوالد إلى المدرسة قابلنا أحد المتشددين المتنطعين، وسأل الوالد في نبرة حادّة إلى أين أنت ذاهب بالولديْن يا عبدالله؟ فأجابه الوالد تلقائياً: إلى المدرسة - ولم يكن يوجد سواها - فقال له: بل إلى المفسدة يقصد المدرسة، فتجاهله الوالد، وحسناً فعل، فمثل هذا الجاهل المتزمت يصعب معه الجدال، ويستعصى عليه الاقتناع، ولكنها صورة من صور ذلك العصر الذي يكثر فيه الجمود أكثر من التطور، والذى يحرص بعضهم على التمسك بالجمود على القديم؛ لأنه قديم، ويشتد نفوره من الجديد لمجرد أنه جديد فحسب دون وعي ولا تفكير.

وانتظم الطفلان في الدراسة وفرحا بالمدرسة وكوّنا زملاء، وانسجما مع المدرسين على الرغم من إحساسهما بالغربة، هذه

الغربة لم تفاجئهما في المدرسة وحدها، وإنما كذلك في البيت، وقد شغلهما الواقع الجديد والتكيف مع الأوضاع الحالية عن التفكير في العودة إلى والدتهما ومحبّيهما في القرية، وبدأ الأخَوان يتكيّفان مع البيئة الحالية، ويتعايشان مع الأوضاع الطارئة عليهما التي لم تكن مألوفة في القرية، ولم يشهداها من قبل.

ذلك أن مما شدّ أنظارهما واسترعَى اهتمامهما بصورة مكثفه: الجواري اللاتي لم يسبق لهما رؤيتهن، فقد كان البيت في القرية يعتمد على ربة البيت وحدها، وتساعدها بنت أو أكثر من بناتها أو زوجات أبنائها إذا كان لها أبناء متزوجون، ولا توجد في القرية جارية تقوم بخدمة البيت من أجل أن تتفرغ سيدة البيت للعناية بنفسها، ولا تتدخل إلاّ عند الحاجة فيما يخص الشؤون المنزلية، وهذا النسق المعيش لم يكن محل إدراك منهما إذْ ذَاك.

ومما تحتفظ به الذاكرة برغم بُعد العهد: وجود عدد من الجواري، وكانت التجارة بهنّ واقعاً مألوفاً في تلك البيئة خلال ذلك الزمن، ولكنهما تعايشا مع الواقع الجديد، وإن كان مغايراً لما أَلِفه الأَخوان في القرية، ولفَتَ نظرهما بصورة مفاجئة مجيء جارية جديدة إلى المنزل، كانت على مستوى من الجمال الباهر،

ذات قـوام ملفـوف، وتقاطيع جميلـة، وصباحةٍ في الوجه، تشـدّ الناظـر إليها، ولو كان في مدرج الطفولة، وهى كذلك إلى جانب هـذا الجمال اللافت للأنظار، فإنها رخيمة الصوت حينما تُغني، وهي تشرع في الغناء عندما تنفرد وحدها.

وكان غناؤها يشـجي ويحمل في طبقاته الصوتية شجىً في النفوس، وكانت تؤدي غناءها بنبرة فيها لمسـة حُزن ولوعة فراق، فكانت نبرات صوتها تلامس شغاف الفؤاد، وتكاد تعتصر مجامع القلب بالصوت الرخيم والأداء الحزين، وهى تعبّر في أسـىً عما تعانيه في غربتها مما لاتبوح به لأحد؛ لأنها مغلوبة على أمرها، ولكنها تعبّر عن مشـاعرها بهذه النغمات الشـجية والحيرة التي تُطـل مـن عينيها، وهـى بحكم واقعها لا تملك من أمرها شـيئاً، فقـد وجدت نفسـها كلّ مدة فـي بيت آخر: أسـيرة واقع لا تملك حُريتها من خلاله، ولا التخلص من رقِّها في إطاره، ولعلها كانت ابنة أسرة يخدمها الجواري في قصرها، ثم سُرِقتْ وجِيء بها إلى هذه البلاد، برغم إرادتها، كما يحدث مع مثيلاتها.

وكان الصغيران يتعاطفان معها ويتأثّران بنشيجها، وخاصة بالنسـبة لـي، فقد كنتُ شـديد الملاحظة لهـا، والتأثـر بزفراتها الحـارّة التـي تتصاعـد مـن قلبهـا الجريـح ومعاناتهـا الدائمة،

ولم أستطع إدراك ما وراء شجونها ولا ما تُنفّس به عن أساها وهمومها، فلم يكن بمستطاعي معرفة حقيقة وضعها؛ لأني أصغر مِنْ أنْ تَلتفت إليه في وضعها الذي هي فيه، أو أَنْ أساعدها في محنتها، ولذلك لم تهتم بأن تعبّر لي أو لأحد غيري عن خوالجها النفسية، وكانت كلما مرّ بها الوقت تنكفئ على نفسها، والذبول يلفّها والهمّ يلازمها.

ومع عدم اهتمامها بنظراتي المشفقة نحوها وتعاطفي معها، فإنها لم تكشف لي عن مكنون سرها، ولا واقع حياتها، ولعلها تعلم أن مصدر عطفي عليها عطف العاجز، وإنما هو مشاركة وجدانية بين طفل جرحت أحاسيسه حالة هذه الجارية، وهو لا يفيدها شيئًا. وإن كان يأنس بها وهي تعيد بعض مقاطع من نفثات أحزانها بصوتها النّدي ولطفها المحسوس، وإذا كنتُ أوضحت موقفي حيالها فإن موقف أخي كان سلبياً؛ ربما لأنه أصغر سناً مني، فلم يلتفت إليها ويلمس أشجانها.

وبعد مدة ليست طويلة افتقدناها، فقد غادرتنا فيما يبدو إلى العاصمة، ولعلها وجدت فيها حياة سعيدة تليق بها، وتعيد لها بعض مكانتها، وربما أفضل من ذلك في رحاب واسعة وحياة متقدمة.

وعلـى العكس من واقع هذه الجاريـة المتألّقة جدًّا بمواقفها الإيجابية وعواطفها المتسامية: كانت توجد بجانبها جارية أخرى ليسـت في مسـتواها في الخَلْق: (بفتح الخاء وسكون اللام) كما أنها لاتُساويها في الخُلُق: (بضم الخاء واللام) وإنما حَريٌّ بها أن تكون خادمة لتلك الجارية الرفيعة المسـتوى خَلْقاً وخُلقًا؛ وذلك أن هذه الثانية جارية عادية تخدم البيت وهو ما يناسبها، وكانت علاقتهـا بالآخرين علاقة يشـوبها الكثير من الفضول والتفاهة وربما قلّة الأدب.

بينما كانت الأُولى ذات مكانة متميزة: معتزّة بنفسها مترفّعة بسلوكها ومعتدّة بِمكانتها، ولذلك فإنها بهذا المسلك الرفيع كانت تحتفظ لنفسها بمسافة محدّدة. لا سيما مع العاملين في المنزل وسـواهم، وكانـت تعبّر عن فيض شـجونها عندما تخلو بنفسـها بما تغنّيه بلغتها مما يبدو أنه يُسـعدها، وينقلها إلى بيئتها التي انتُزعـت منهـا بغير إرادتهـا، وكانت بدندناتها المؤثّرة في المشـاعر الانسانّية: تنتزع لحظات من فراغها كعادتها، فتشدو شدوَها الحلو المحبّب، وهو شدو يأسر المستمع، وهكذا – يُخيّل للصغير- عندما تُغنّي بصوتها الرخيم المبلل بالدموع المنسكبة على محياها: وقد تبدأ أغانيها وحدها، ثم ترى الحضور يتحلقون حولها، فتكفّ عن

غنائها وترانيمها . في حين أن الجارية الأخرى لاتدانيها في أدب، ولا حشـمة، ولا منظر حسـن، ولو أنصفها الحظ لكانت بمكانتها المترفّعة سيدة لهذه الجارية التافهة، فالفرق بينهما واسع، وكذلك التصرف لكلٍ منهما مختلف حسب وضع كلٍ منهما، فقد كانت الثانية دون الأولى مكانة وأدباً، ومختلفة عنها كل الاختلاف، فالأولى تتصف- إلى جانب الوسامة والمنظرالمريح- بالسلوك الرائع الذي لاتشوبه شائبة، في حين أن الثانية على عكسها، فقد كانت تتطلع إلى مَن يدخل البيت أو يتعامل مع متطلّبات السكن بعين الرغبة والابتذال، ولذا فقد زوجها الوالد من خادم كان يعمل في أشغال البيت، واشترط عليه - غفر الله له - أن يكون أولادهما مملوكين له تبعاً لأمهم.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة: هل جرى هذا الوضع عن عدم علم بحكم الشريعة أو تمشياً مع عادة يجرى عليها العُرف السائد في ذلك الوقت؟! يصعب التعليل. لكن المهّم أنها، والحمد لله لم تُنجب، فلم يحدث خلاف حيال هذا الشرط التعسفي، وبذلك سقط الشرط المجحف بفضل الله سبحانه وتعالى وهى مسألة يطول الخلاف حولها، ولا ينحصر في نطاق معيّن، ولم أكن بحكم سني وعدم خبرتى يجوز لى أن أتطفل بالسؤال عن حكم

الجواز، ولكنه شدّ انتباهي، وترسخ في وعيي منذ الصغر، ولعل هذا العمل يمثّل صورة اجتماعية كانت موجودة وسائدة من قَبل، ثم انتهت بفضل الله، ولعلها عادت في صورة خادمات من بلدان آسيوية وإفريقية وقارات أخرى بعيدة، ما كان في الحسبان أن يكون لهم أو لهن وجود في جزيرة العرب، وفي بلادنا بالذات. لكن العمالة الوافدة بكثافة إلينا من كل قطر قريب أو بعيد أوجدت هذه الحالة، وهى طارئة في حياتنا الحالية، وليست أصيلة في ماضينا القريب.

لقد تحولت نظرتنا - مع المدنيّة الحديثة ورخاء العيش الوفير - إلى ترف ملموس، فصار السائقون والخادمات من ضرورات الحياة الاجتماعية الحالية ضد الماضي، فلقد كان البيت عندنا فيما سلف يقوم على سواعد مَنْ في البيت من النساء وَفْق الطرق المعروفة آنذاك ببساطتها ومحدوديتها في أجهزة الطبخ ووسائل التنظيف وأدوات الغسيل، فتحولت كل هذه الأوضاع إلى واقع معاصر معروف، مغايرة لكل ما سبق، وعلى نسق جديد، وهذا التحول الواسع، وإن كان في ذاته يحمل طابع المدنية، إلاّ أنه تحوّلٌ يظل مفتقراً إلى الروح الإسلامية المحافظة التي يُزكيها العمل

الصالح، ويسندها التدّين المطلوب، وتحت إلحاح هذه الهجرة الحضارية، فقد بدت في الواجهة فوارق واسعة قد تكون متنافرة بين محافظة أصيلة، وتطور كاسح، فلقد ساد تيّار التطور واكتسح ما أمامه من مصدّات المحافظة والروابط التي كانت سائدة.

وفي مواجهة تيار التطور السريع وجدتُ نفسي بين مدّ وجزر: تشدني التقاليد القروية الساذجة التي تربيت عليها، ونشأتُ تحت مظلتها، وفي كنفها في الصغر، وبين الواقع الجديد، حيث بدأت تجتذبني أضواء التجديد والانسياق في تياره العنيف، فأحسست بذوبان جليد المحافظة على القديم، فأصبحت - وأنا صغير السن - بين شدّ وجذب: قديم يشدني إليه، وجديد يُغريني بالامتزاج به، وبعدما كبِرتُ وانطلقتُ في رحاب الدنيا الواسعة التي لا تحدّها تقاليد القرية في السابق، وتستوعبها حداثة المدينة في اللاحق، وبذلك انطوت صفحة هذا التجاذب بين قديم يصعب التخلص منه، وجديد لم يكن مألوفاً من قبل، ومن خلال هذا الواقع وجدت أنه لا بد من التكيف مع العصر بالتوازن في تنمية العلاقات مع الحديث المتطور، والقديم المحافظ، ولعل جيلي كان كذلك.

# التعليم

أشـرتُ فيما تقدم إلـى التحاقنا: (نحن الأَخوين) بالمدرسـة الابتدائيـه النظاميـة وموقـف بعـض المتزمتـين منهـا ونظرتـه المتزمتة إلى الملتحقين بها، والجاهل عدّو ما جهل، وقد انتظمنا بالفصل الأول منها، وكنا جادّين في التحصيل الدراسي، وليست لدينـا شـواغل تلهينا عـن الدراسـة، ولذلك كنا نتفـوق في هذا المجـال بأداء الواجبـات والمواظبة على الحضور إلى المدرسـة في الصباح الباكر، فلم يكن يشـغلنا شـيء مما جَدّ في هذا العصر، كمـا هو واقـع الحال الآن، فلا أجهزة حديثة ولا مَشـاهد مغرية، ولا شـيء مما يشـدّ الانتبـاه من الأجهزة المتطـورة التي حملتها المدنيّة الحديثة، وأهم شـيء تعتمد عليه مِثْل هذه الأجهزة: هي الكهرباء، فلم نكن نعرفها في حياتنا تلك.

أحببت المدرسـة، واجتهدت في الدراسـة، وتفوّقـت بين أقراني، حتى إني كنتُ الأول في الفصول التي درست فيها، وقد أصبحتُ في

الفصل الخامس الابتدائي، ومعنى ذلك أنه بقي عليّ سنة دراسية أخرى هي السنة السادسة؛ لأحصل على الشهادة الابتدائية، وكانت في ذلك العهد مفخرة ومحل اعتزاز، وربما يتوظف بها المتخرج من المرحلة الابتدائية، وهي بالتأكيد تفتح أمام المتخرج من هذه المرحلة أبواب الدراسة المتوسطة والثانوية وتقوده إلى الدراسة الجامعية، لكنى لم أكمل الدراسة الابتدائية؛ وذلك لأني بحكم وضعي الأول على الفصل: كنت مسؤولاً عن انضباطه في غياب المدرسين.

وفي هذا المجال ينطبق عليّ القول: (وأكثر ما يجنى على المرء اجتهاده)، فهذا الاجتهاد الذي أوصلني إلى رئاسة الفصل بين الطلاب: هو الذي أدّى بي إلى الخروج من المدرسة، وتفسير ذلك أن أحد المعلمين - ولعله ممن وصفهم الجاحظ بالحماقة - عندما دخل الفصل في إحدى الحصص كان التلاميذ عائدين من فسحتهم، ويتكلمون بأصوات مرتفعة قبل دخول المدرس الفصل، ودائماً الصغار يميلون إلى العبث وعدم الانضباط، بالجلوس في مقاعدهم الدراسية، وحينما دخل المعلّم الأحمق الفصل صرخ فينا بالإنصات والهدوء، ثم اتجه إلي بحكم رئاستي للفصل طالباً مني تسجيل أسماء المشاغبين منهم الذين أثاروا هذه الضجة، فأجبته بأنهم جميعهم اشتركوا في الإثارة، فأمرني

بالوقوف طيلة الحصة، وما اكتفى بذلك بل ضربني على يدي، وقد استبدت بي حالة من الحنق وثارت أعصابي، ولم أدخل معه في مجادلة لصغر سني وتوقيري له بوصفه مدرسًا، وتحاملت على نفسي وكظمت غيظي، وابتلعت الإهانة.

ولكن بعد خروج المدرس من الفصل خرجتُ في أثره إلى البيت، مقسماً أمام زملائي ألا أعود إلى هذه المدرسة، وحملت دفاتري وأوراقي عائداً إلى البيت، محطم النفس مجروح الكرامة، وحين رآني الوالد - رحمه الله تعالى - بتلك الحالة السيئة التي انعكست على مشاعري: رقّ لي، مع أنه كان عنيفاً في تربيتنا، ولكنْ للعنف حدود والعاطفة الأبوية تتغلب على الانفعال التربوي، ورويت للوالد كل ما دار بين المدرس وبيني، واستشهدت بأخي وزملائي فصدّقني - تغمده الله برحمته - دون حاجة إلى سؤال أحد؛ لأنه تعوّد مني الصدق بأن أقول ما لي وما علي، وتألّم لظلم المدرس لابنه، وهو المتفوق في الدراسة، وقد منحني الخيار بالاستمرار في المدرسة أو تركها، فقد أدرك بحس الوالد ما يعتمل في نفسي من ثورة نفسية، ولذلك ترك لي مطلق الخيار، ونظراً لهذا الظلم الفادح، فقد كان لهذا الموقف أثر في التعاطف معي.

وأذكـر أن مديـر المدرسـة حضر إلـى المنزل يعتـذر للوالد عن شـطط هـذا المدرس الـذي ربما نالـه الكثير من التوبيخ وسُـجّل عليه هذا الموقف، وقد ترك الوالد الخيار لي في العودة إلى المدرسة وعدمها، وكنت قد صممت، على ألا أعود مهما كانت المبررات، وكان ذلك، ومما لا أنساه – أنه على الرغم من قسوة الوالد في التربية وتوقيرنـا لـه والخـوف منـه – إلا أنه غفـر الله له تحـول موقفه المتشدد إلى موقف عاطفي. تجلّت عاطفته الأبوية بأرقَى المشاعر الذاتية، وهو موقف منبعث من عاطفة الوالد بحكم أنه والد، وإن تدثّـرت بالصلابة ظاهرياً إلا أنها تبدو علـى طبيعتها بين الأبّوة والبنوّه في مواقف معيّنة، كما لمستها في هذا الموقف.

وحيـاة المـرء لا بد أن تكتنفهـا بعض المتاعـب، وتطرأ عليها بعـض المصاعـب، وهذه حال الدنيا يجد الإنسـان نفسـه بين مدّ وجزر، واتسـاع فـي الأمل وانقباض في الواقـع، وفي كل الحالات لا بـد مـن مراعـاة احترام الفـرد بصـرف النظر عن صغر سـنه وعـدم المسـاس بمشـاعره، فهو مهمـا كان صغيراً في السـن، وفي المكانـة إلا أنه مزود بإحسـاس إنسـاني يشـعره بمكانته، ويحمي كرامته، وإذا كان الموقف الأول في المدرسـة الابتدائية، فإن الموقف الثانـي فـي المدرسـة الثانويـة: التحقت بهـا في مدينـة معروفة

مـن مدن المملكة، وكان رئيسـها مـن إحدى الـدول العربية، وفي السنة الدراسية الإعدادية حسب نظام هذه المدرسة حصلتُ على الشـهادة الابتدائيـة، وانطلقت في الإجـازة الصيفية إلى الأهل، ولأن وسـائل المواصلات كانت صعبة جدًّا فقد تأخرت عن حضور الدراسة في أول افتتاحها في العام الدراسي الجديد.

وحـين حضـرت إلى المدرسـة لاسـتئناف الدراسـة بهـا، وكنت قد تأخـرت بضعـة أيام محـدودة، وكان هـذا التأخر يتطلب مـن المراقب أن أُقابـل رئيـس المدرسـة، وعندمـا سـألني عن سـبب تأخـري أجبته ببـراءة: إنـي كنت أنتظر قدوم الأسـاتذه من إجازتهـم، ولعله لمس في هذه الإجابة الصريحة مساساً به وبمَنْ معه من المتعاقدين القادمين بصحبتـه للعمـل في هذه المدرسـة، حيـث لم يعودوا مـن إجازتهم إلا خلال الأسـبوع الذي تأخرت فيه انتظاراً لعودتهم؛ لذلك أصدر أمره الحاسم لمراقب الطلاب بحرماني من الإعاشة التي كانت تُقدم للطلبة - في القسم الداخلي - كما يُطلق عليه، وتم تنفيذ هذا الحرمان.

ومع أن زملائي من الطلاب المغتربين مثلي دعوني للأكل معهم، إلا أنى امتنعت، ولم تسمح لي نفسي الأبيّة أن أُعامل هذه المعاملة المهينة، وأن أنصاع لهذا الأمر التعسـفي، فتركت المدرسة وغادرتها،

وقد تركتْ مغادرتي إرباكاً لرئيس المدرسة ووضعته موضع المساءلة والحرج؛ لأن تصرفه كان غير مناسب، ويخلو من الذوق والكياسة، وكان لنا مدرس للفقه -رحمه الله- وهو شيخ جليل وعالم مستنير معروف بحصافة الرأي والإدراك، حين رأى الرئيس في حيرة من أمره: حذّره من العودة لأن يفعل مع غيري مثلما فعل معي، وقال له: هؤلاء التلاميذ الذين يدرسون بهذه المدرسة لو سألت عن تواريخ ولادة كلٍّ منهم لوجدت أنها مرتبطة بِحدث تاريخي، فهم أبناء هذه الجزيرة: تربوا على الخشونة والأَنَفة وعدم الإذلال في أي موقف مثل ما حدث، وقد أسف -رحمه الله- لهذا التصرف المهين، ولكني كنت قررت عدم العوده للمدرسة.

ولم يكن اهتمامي بالعلم مرتبطاً بمدرسة معيّنة، وإنما ينصّب على العلم ذاته بكل مستوياته، ومن هذا المنطلق درست على يد شيخ مرموق في علمه، جليل في مكانته، وكانت لهذا العالم -رحمه الله تعالى- بدايات تبشر بأهميته المستقبلية في البلاد، كما أن له مكانته المرموقة في المجتمع، وكان الطلاب في حلقات دراسية، وسماحته يجلس بعد صلاة الفجر؛ ليستقبل

هؤلاء الطلاب بحسب تحصيلهم العلمي وإدراكهم، والتصنيف لهم يجيء وَفق تقدم الطالب وفهمه ومدى تحصيله، وهذا ما يتبيّن من إدراك الشيخ لاستيعاب الطالب ومدى تحصيله، ومن هؤلاء الطلبة مَنْ يرشح للقضاء إذا نال التزكية من شيخه. وحلقات تدريس العلوم الشرعية من قِبَل علماء أفاضل متميّزين في الفقه وعلوم الحديث واللغة العربية والفرائض، وما يتفرع عنها من علوم الشريعة، وهؤلاء العلماء الذين يتصدّون للتدريس في المساجد منحهم الله العِلم الرباني، فكانوا مصابيح تضيء للناس الطريق، وقد تصدوا - جزاهم الله خيراً - للتدريس وإضاءة منارة المعرفة الدينية، وهذه الحلقات العلمية ليست بِدعاً في واقعها، وإنما هي من مواريث العلماء الربانيين القدامى، فقد كان علماؤنا الأجلاّء على مدى العصور المتعاقبة يتوارثون طريقة التعليم عَبْر الحلقات في المساجد. بحسب واقع أزمنتهم، وهي طريقة سلفية متّبعة منذ أسلافنا، سار عليها الأوائل من السلف وورّثوها للأواخر مِن بعدهم في العصور التي لم تنشأ فيها المدارس النظامية والمعاهد العلمية والجامعات المتخصصة، كما هو واقع الحال في هذا العصر.

ولم يكن اهتمامي بالعلم مرتبطاً بنجاح معيّن في التعليم، وإنما كان ينصبّ على العلم ذاته من أي مصدر كان. مادام في إطار العلوم المفيدة، وقد كافحتُ بمفردي برغم قلة المعين من

البشـر، مكتفياً بعون الله تعالى، وهو نعم المعين! واسـتطعت أن أحصـل علـى شـهادة المعهد العلمي السـعودي بمكـة وأن ألتحق بجامعة القاهرة، وأن أتخرّج فيها، وأن أُعِدّ نفسـي للابتعاث إلى أوروبـا، وهـو ما كنت أسـعى إليه وأحرص عليـه، وكنت قد جهزتُ أوراق تخرجـي فـي جامعـة القاهـرة، وتم وضع المـواد والدرجات باللّغـة الإنجليزية، وذلك لتقديمها إلى جامعة لندن، ولكن هنا الأمـل تبخّر وتلاشَـى عندما قدمتُ إلى البـلاد من مصر، وباءت محاولاتي للابتِعاث بالفشـل إلى الخارج؛ لأن مَنْ لا أردّ له طلباً رغب إليّ أن أعمل بمعيته، وبذلتُ محاولات عدة لتحقيق أمنيتي بالدراسـة في الخارج، ولم أتمكن، وكان الوعد من المسؤول الكبير أن أعمـل مـدة عام أو عامين فقط، وبعـد ذلك يُتاح لي الابتعاث، وقد امتدت مدة العامين إلى (٢٢) عاماً.

وفي محاولة لتعويض ماخسـرته بعدم تمكنِي من الدراسـة العليا، فقد استطعتُ أن أرسم لنفسي هدفاً، فأثقّف ذاتي بالعكوف علـى مداومة القراءة في أوقات الفـراغ، ومتابعة مصادر المعرفة، واسـتطعت بفضل الله تعالى: أن أرسـم لنفسـي خطاً مستقيمًا في مجال الثقافـة والأدب، والمتابعة الثقافية الجادة، وذلك على قدر ما يتسع لي من الوقت، وما يتاح لي من التخفف من معاناة ضغوط العمل الشاق المرهق ومسؤولياته المتعددة والمتنوعة.

# معاناة التربية في جيلنا

كانت التربية في ذلك الوقت تقوم على الشدة والقسوة برغم ما تضمّه جوانح الوالدين من حب لصغارهما، إلا أن مظهر القسوة شيء مألوف في طبيعة تلك الحياة الجافة، وكانت الشدة منهجاً متعارفاً عليه بين الآباء وبعض الأمهات، حتى إن الفرد من الآباء يُخيّل إلينا نحن الجيل المخضرم: أن هذا الأب يرى أن إبداء العاطفة مظهر ضعف وخَور في الطبيعة، وأن الرجولة مظهر مطلوب لا يخضع لرقة قول ولا ابتسامة وجه، ولهذا فإن الآباء يشتدون في تربية الأولاد. حتى إن بعض الآباء لا يراه أولاده باسماً؛ لئلا تزول رهبته وتسقط هيبته، وبمقياس ذلك الزمن الغابر، فإن الرهبة عمل مطلوب، والهيبة واقع مفروض، لا سيما مع الأهل والأولاد، ومما لا أنساه أننى كنت أنا وأخى محمد -رحمه الله تعالى- وكان والدنا يُعِدّ القهوة في المكان المخصص لعملها، وإعدادها يعتمد حينها على نار وقودها الحطب، ولها

أدوات مخصصة تُستعمل في تقريب النار نحو الدلة وإبعادها عنها أو وضعها على الجمر الذي تخلّفه النار، ومن أدوات ملاحقة النار أو الجمر أداة تسمًّى الملقاط يلتقط بها الجمر، والذى يُعِدّ القهوة للضيوف عادة صاحب البيت، وكنت أنا وأخي جالسيْن في آخر المجلس مع الضيوف، كما تقتضي التقاليد ذلك، فليس لنا حق المشاركة في الحديث إلا حين نُسأل، وكما يحدث بين طفلين صغيرين فقد ضحكنا، فما كان من الوالد إلا أن أخذ الملقاط الذي يدخل النار - ومُغطًّى بالسواد؛ لكثرة تحريك الجمر وأعواد الحطب - فضربنا على فخذينا بهذه الأداة العنيفة أمام الضيوف. وقد شدّنا الفزع، وتملّكنا الخوف، حتى لم نستطع الهرب أو التحول عن مكاننا.

وكانت الوالدة تغمدها الله بواسع رحمته - برغم قلبها الرقيق- إلا أنها تُبعد العاطفة في معاملتنا؛ حتى تكون تربيتنا صالحة وناجحة، وهى ترى أن تربية الوالد العنيفة لنا مطلوبة؛ لأن ذلك في مفهومها لمصلحتنا في مستقبلنا، وحتى لايُفسدنا التدليل، وتستمد هذا الموقف من طابع العصر وسلوكياته، وهي

ليست نشازاً في هذه الحالة، وإنما هي مثل الأُمهات الأُخريات تعمل وفق بيئة اجتماعية تفرض عليها كتمان الحب وإظهار التشدد، وحسبما تتطلبه التربية في هذه البيئة فلا بد من الخشونة في التعامل، وأحمد الله تعالى أن هذه المعاملة لم تنعكس على نفسياتنا نحن الأولاد، وكان أثرها عكسياً على أولادنا، فقد تفادينا القسوة عليهم بحكم تجربتنا المريرة، وربّينا أولادنا على الأدب مع الكبير والحب العميق. إلى جانب المشاركة الوجدانية وسماحة التصرف معهم، مع الاحتفاظ بمسافة بين حقوق الوالديْن عليهم وواجباتهم نحو الوالدين.

وحين بلغنا مبلغ الرجال، وأصبحت لنا استقلالية تامة، وكبر الوالدان في السن كان العطف عليهما والبرّ بهما. ولا أقول: نسينا ما لاقيناه من عنف وغلظة في معالجة أخطائنا المحدوده، فلقد تجلت عواطف الأم والأب نحونا، وما كان لنا أن نذكِرهما بصلابة المواقف؛ لأن ذلك يمثل نهجاً تُمليه البيئة ويشجعه المجتمع، وبعدما أصبح لي أسرة أدركت أن المظهر المتجهم الذي كان يُبديه الوالد نحونا كان بقصد إصلاحنا واستقامتنا، وهو من خلال

ذلك المظهر الصارم، والتعنيف الدائم: كان يُخفي عاطفة جياشة بالحب وروحاً سمحة، ولكنه يتوارى خلف التقاليد الصارمة. لأن طبيعة الأرض وخشونة العيش، وكل مظاهر الحياة البيئية: توحي بهذا التصرف الذي ينهجه الآباء نحو الأبناء. حتى لقد كان من المألوف أن الأب حينما يذهب بابنه للكُتّاب يقول للمعلم: لكم اللحم ولنا العظم، أي من حق هذا المعلم الذي أهمّ أدواته عصا طويلة: أن يضرب التلاميذ بما يؤلم على ألا يتجاوز ذلك إلى تكسير العظام، وكانت الأم الرؤوم على النهج نفسه والمنوال ذاته؛ فإن قلبها يتفجر محبةً ملموسة، وعطاءً سمحاً، فحنانها يتدفّق من ينبوع صادق صافٍ سخي، ولكنها تكتم هذه العواطف ولا تجهر بها؛ مخافة خروج الأولاد على الطاعة المفروضة في البيت، وتبرر هذه المواقف المؤطّرة بالحُب الرائع: في تستّرها على ما يصدر من أولادها من بعض العبث الطفولي أو الشغب الصبياني، ولكنها تنكشف مداراتها لهذه المشاعر عندما يمرض أحدهم أو يغيب عنها، فالأم مهما حاولت الصرامة إلا أنّ عواطفها تخونها وتكشف مدى حبها المتغلغل بين جنبيها لفلذات كبدها.

والأب كذلك يشاركها هذه المشاعر، ويشترك معها في الاحتفاظ بهذه العواطف وعدم الإفراج عنها إلا في أوقات محددة

تستدعيها الأسباب الموجبة أو بعض الأحداث الطارئة: مثل المرض لا سيما إذا كان شديداً، فإن الهلع الذي يستبدّ بالأم والجزع الذي ينالها يكون للأب نصيب كبير منه. مهما حاول التحامل على نفسه ليبدو صلب المواجهة. إلا أن مشاعره تفضحه، وربما تشترك دموعه مع دموع الأم عندما يصبح الابن معرّضاً للخطر. هنا: تمتزج دموع الوالدين ويعتصرهما الخوف على ابنهما، ويسعيان لعلاجه عَبْر وصفات مجرية في ذلك الجيل، وعواطفهما تنسكب دون تحفظ ولا موارية، فاذا شُفي وعاد إلى وضعه الطبيعي: رجعت أَمارات الجدّ وعادت المعاملة المتبعة، وتراجعت مظاهر العواطف إلا إذا حصل ما يستدعيها من أحداث.

وكل ما في البيئة يوحي بهذا المظهر المغاير لما يبطنه الوالد الحنون من عواطف لايعبّر عنها إلاّ في مناسبات خاصة يستدعيها الموقف، وهو من هذا الجانب ينطوي قلبه على وداعة وحب غامر لأولاده جميعاً، ولكنه -بحكم التقاليد الصارمة- لا يمكنه الإعراب عن هذا الحب أمامهم؛ خشية أن يسيء هذا التعبير العاطفي إلى نظرتهم إليه أو يدعوهم إلى التمرد على تعاليمه حسب تصوره وفق العُرف السائد في ذلك

العهد، وكانت الأم الحنون تسير على النهج نفسه والمنوال ذاته على الرغم من تزاحم المشاعر في وجدانها، فهي تريد إشعارهم بالمسافة التي بين الوالدين وبين الأولاد، وأنّ إبداء الحب يلغي هذه المسافة، فلا يستطيع الوالدان تربية البنين خاصة، فهي تُبدي التشدد المصطنع وتضمر الحب العميق الذي يَشفّ عنه قلبها المتفجر محبة وعطاءً وسماحة، ولا شك في أن حنان الأم بالذات يتدفق من ينبوع صادق سخي الوجدان، ولكنها تكتم عواطفها فلا تجهر بها؛ مخافة خروج أولادها عن طاعتها، كما هو نهج التربية القديمة، وهى في واقعها لا تستطيع كبْت هذه العواطف إزاءهم في تصرفاتها معهم، عندما تشعرهم بكل مشاعر الود في تصرفاتها معهم، وفي حنّوها عليهم.

ويؤكد ذلك تستّرها عليهم وما قد يصدر عنهم من عبث أو شغب بين بعضهم، فلا تنقل ما يدور بينهم إلى والدهم، كما تنكشف مداراتها لعواطفها غير المعلنة إلى إبرازها عندما يمرض أحدهم أو يغيب عنها، فالأم بطبيعتها مهما حاولت الصرامة، فإنها تفضحها عواطفها وحبها المتغلغل في جوانحها لفلذات كبدها، والأب كذلك يشاركها هذا الشعور، ويشترك معها في

الاحتفاظ بعدم البوح بمشاعره لأبنائه؛ لأنه يخشى ألا يتقيد أبناؤه بتعليماته، ولذا فإنه يحتفظ بعواطفه، ولا يُفرج عنها إلا في أوقات محدودة، وفي مناسبات معدودة، لا سيما في حالة المرض المفاجئ، فإن الهلع الذي يستبد بالأم، والجزع الذي ينالها، والهمّ الذي تستشعره في هذه الحالة: ينعكس على الأب مهما تذرّع بالتحمل، ومهما توارى خلف التحامل على نفسه ليبدو صلب المواجهة: إلا أنه تخونه عواطفه، وربما تشترك دموعه في التعبير عن عاطفته، وهنا تمتزج مشاعر الوالدين، ويعتصرهما الخوف على ابنهما، وتبدو عواطفهما دون تحفظ، ولا مواربة، فإذا عاد الابن إلى وضعه الطبيعي، وزال عنه ما يُخشى عليه من خطر: رجعتْ أمارات الجدّ إلى ملامح الأب، وعادت السدود والحواجز بين الكبار والصغار، وهذه تربية غير سليمة، لكنها كانت التربية المعروفة حينذاك والمستساغة في ذلك العهد، وأفراد المجتمع يتأثر بعضهم بالآخر، ويقلّده في النهج التربوي الذي يجنح إلى العنف بدل اللطف، والصور التأديبية تنتقل من بيت إلى بيت بحكم التقليد والمتابعة.



# التربية القديمة

سلطة الأب في ذلك الزمن كانت تقوم على الإرهاب النفسي والتسلط الفردي، فمع ما يضمره الأب من حنان، وما يختزنه في ذاته من عواطف إلا أنه يُظهر سلطة الرجل، ويثبت تسلط رب البيت، ولهذا ما إن يدخل المنزل، حتى تخفت الأصوات، ويتحول الجهر بالكلام إلى همس، ويتحاشى كل فرد فتح أي موضوع يؤدي إلى مؤاخذة أو يُفضي إلى ما يستنكف الوالد عمله من وجهة نظره، ولا تسلم حتى ربة البيت من هذه المعاملة القاسية، فهي تخشاه في كل خطواتها وتُداري غضبه في جميع حالاتها، فإذا أخطأ أحد الأولاد دارت هذا الخطأ، وتسترت عليه، والويل لها إن انكشف المستور أو تبين المخفي حينئذٍ تحتد ثورته، فيوجه سهام هذه الثورة إلى الزوجة المسكينة، حيث يصليها ناراً من سليط الكلام وجارح القول، وهي تتعثر في محاولة الإجابة، ولكنه ينهرها بشدة ويرفض منها الإدلاء بأي أعذار.

ثـم يلتفت إلـى الولد الـذي صدرت منـه المؤاخـذة، فيمطره وابـلاً مـن التعنيف في ثـورة عارمة عنيفة مهـدداً متوعداً بالويل والثبـور وعظائم الأمور، وهو يرتجف من الغضب ويستشـيط من الغيـظ، وكلماتـه تندفـع كالقذائـف، والكل من حولـه في صمت وذهـول ينتظـرون انتهاء هذه الغضبة المضرية، وانقشـاع سـحابة هـذا الغضب العنيف، وأحياناً ينفّذ الوعيد والتهديد، فتمتد يده إلى أي شيء في متناوله: عصا أو حديدة أو ما هو صالح للتأديب، فيهوي على الشـخص الـذي أمامه، وكان الابـن الأكبر يعاني من شدة عقابه، حيث يُعلّق رجليه ويضربه، حتى يخرج الدم منهما.

وأذكر منظراً لا أنساه، حين رأيت أخي الأكبر -رحمه الله- وهو يزحف لا يسـتطيع السـير على قدميه من شـدة الضـرب، والوالد العنيـف يسـتمر فـي ضربه، ولايتوقـف حتى يتم اسـتدعاء بعض الأقـارب أو أحـد الجيران للإمسـاك به. ولذلـك عندما يدخل إلى البيت تُعلن الأحكام العرفية، ويتم الحظر الشـديد بعدم المزاح، أو الضحـك أو الجدل بصـوت مرتفع، وعلى كل فرد في هذا البيت أن يصمـت كأنّ على رؤوسـهم الطير، بل ما هـو أصعب من الطير: إنّه السـوط اللاّهب والعنف المروّع، فليحذر كلٌّ منهم أن يكون في ذلك اليـوم هو موضـع التأديب: ليتـأدب به الجميع، ومع هذه القسـوة البالغة في معاملته لأسرته، فإنه كان لطيفاً ودوداً لأفراد الناس.

كما كان كذلك صاحب خلق رفيع ومعروف بكرم النفس ولطف المعشر، والذى يرى طيبته المتناهية خارج المنزل، ويلمس روحه الحلوة ويستمع إلى نكاته المضحكة وحكاياه المسلّية: لا يصدق أن هذا الرجل يتحول ذلك التحول المدهش في محيط البيت، حيث يحل العبوس محل الضحك، وتحل الشدة في التعامل في المنزل محل اللطف خارجه، وتتبدل الأحوال من النقيض إلى النقيض، ولعلّ رب البيت في تلك المدة الزمنية كان يقيس مكانته بما يُحدثه من رُعب في نفوس الأسرة، وما يلقي موقفه المتصلّب من ظلال على أفرادها؛ حتى يضمن حسن سلوك الأولاد، فهو يصحبهم إلى المسجد ويتفقدهم عند الصلاة ويلحّ عليهم في المواظبة عليها، وكل هذا محسوب له.

لكنّ المحسوب عليه هنا الترويع الذي يهزّ أفئدة أفراد الأسرة عندما يُحقق مع أحدهم أو يستجوبه عن تصرف ارتكبه، مهما كان هذا التصرف صغيراً أو تافهاً، وهو بلا ريب ينطوي في داخله على حب أكيد لأولاده وحنوٍ طبيعي عليهم. لكنه لا يُبرز ذلك؛ لئلا تكون نقطة ضعف في سياسة تربيتهم، فهو على حد قول الشاعر:

فقسا ليَزْدَجِرُوا ومَنْ يكُ راحِماً

فليقسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَم

وكان هـذا المفهـوم الخاطـئ فـي التربيـة سـلوكاً متوارثـاً من الأجداد للآباء يتلقاه الأب عن الجد، كما يتلقاه الحفيد عن الأب، وهكذا سلسلة متوارثة من المفاهيم الخاطئة في التربية السلوكية: تخضع لاجتهادات شـخصية لا تقوم على أسس تربوية ولا تستمد أصولها من واقع حصيف، ولكنها تقليد متوارث عن أجيال سابقة. وضـد هذه التربية العنيفة تأتي التربية المائعة التي تُعامل الأولاد بالتدليـل، حيـث لا يُرفض لهم أي طلب، فيجـدون أمامهم كل ما يريدون، وما يشتهون، حتى إذا واجهوا الحياة فيما بعد لم يجدوها، كمـا هي في تنشـئتهم: لأن متاعب الحيـاة لا تخضع للأمزجة ولا تسـير وفـق الأهـواء، وإنما هـي أخذ وعطـاء، وكدح وعمـل، ونجاح وفشـل، فـإذا عايشـها الفتى المدلّـل وجدها لا تأتي علـى هواه، ولا تسير وفق ما يريد: حينئذٍ يحاول أن يحقق ما يبتغيه بأي أسلوب؛ لأنه أَلِفَ عدم التوقف في طلباته، وعند ذاك يكون مصيره الفشـل ويسقط من قائمة النجاح بسبب جناية تدليله في صغره.

وتربيـة ثالثة، وهى في واقعها أيضًا تربية تالفة؛ لأنها تركن إلى الإهمال، فلا تُعير الأولاد أي توجيه، ولا يشعرون في محيط

الأسرة بسلوك متميز يقلدونه، ويقتفون أثره، وإنما يعتمد الأب على إرضاء رغباته في الخارج، وتجنح الأم إلى مغادرة البيت بسبب وبلا سبب، ويصبح أفراد الأسرة يعيشون في فراغ، فيقتلون أوقاتهم فيما يسيء، ولا يفيد، وربما يخضعون لتوجيه الخدم، ومعلوم أن الصغار لديهم قابلية جيدة للتلقي واستعداداتهم جاهزة للتأثر السريع.

وفي ظل هذا الواقع التربوي المتذبذب، فإن كل الأصناف الثلاثة لطرق التربية التي مرّت بنا لا تُصلح الأولاد، بل هي ضارة بهم وعواقبها عليهم وخيمة ونتائجها سيئة، وخير الأمور الوسط: لا شدة منفّرة ولا تدليل مفسد، ولا تقتير على الولد، ولا إسراف في الاستجابة لمطالبه، ولا إهمال يُشعره بعدم الأهمية، ولا حرص يُفضي إلى تسجيل جميع الحركات والسكنات، وإنّما يكون الوضع بين الشدة الظاهرة واللين في المعاملة والإغضاء عن الهفوات الصغيرة وتجاهلها على حد قول الشاعر الحكيم:

ليسَ الغبيُّ بسيّدٍ فِي قومِهِ

لكنّ سيّدَ قومِهِ المتَغابِي

فبالنسبة للأولاد لا يكون هدف الأب متابعة تحركاتهم وإحصاء مجالات جدّهم وهزلهم والتضييق عليهم: لأنهم سوف يتبرّمون بذلك، ولا يطيقونه، ويحسون برقابة صارمة مفروضة عليهم، تجعلهم يتمردون عليها، ولا يحترمون من يفرضها عليهم، وإنما يضيقون به، والمفروض أن يَتْرك لهم قدراً من الحرية، فلا يُحصي عليهم أنفاسهم، وإنما يدع لهم مجالاً لممارسة هزلهم ولعبهم. على أن يتغاضى إذا سمع كلمة لا تعجبه، ويتجاهل إذا بدا له ما لا يناسبه من تصرف، فإذا أدرك الولد أو الأولاد موقف والدهم المتسامح في غير إهمال. المتغاضي في غير غفلة. المدرك لما يدور من الأمور: حينذاك يكون توجيهه موضع ترحيب وإرشاده محل اهتمام، وبذلك تسير التربية على ما يرام.



# مظاهر اجتماعية

مـن المظاهر التـي كانت سـائدة في ذلك الجـو الذي يوحي بالسُّـلطة لرب البيت، وبالخضوع لربة الدار: أنه حتى لو لم يكن في البيت سـوى الرجل وزوجته فإنه يأكل أولاً ثم تأكل هي بعده، وهـذه طريقـة متّبعة في ذلك الجيل، ولا أدري إن كان لايزال لها بقايـا امتـداد حتى الآن في بعـض القرى أو لدى بعض الأسـر. المهم هو عزل النسـاء عن الرجال في الأسـرة الواحدة عند تناول الطعـام بالـذات، وكأنه لا يجوز أن تأكل المرأة مع محرمها سـواء كان زوجهـا أو ابنهـا أو أخاهـا. ولقد عانيت مـع والدتي -رحمها الله- وهي تسكن في بيتي أشد المعاناة لتأكل معي ومع أخي ابنها، ولكنهـا أبـت الأكل معنـا إلاّ بعـد أن آكل قبلها، وبعد أن أقسـمتُ عليهـا ألاّ أمـد يدي إلى الطعام إلا إذا شـاركتنا فيه، فكانت تأكل على اسـتحياء، وتطلب إلي وإلى أخى البدء بالأكل، وهى تتلهّى وتتشـاغل بمـا يوحـي بصرفها عـن الأكل، ومما أذكره ولا أنسـاه

أنــه عندما كنــا في القريــة، وكان يضمنا بيت كبيــر به مجموعة مــن الرجــال ومجموعــة مــن النســاء، وكان الأضيــاف العاديون يحضــرون فــي أوقات الطعــام دون موعد ســابق، فيصبح الحيف على النساء، حيث يُقدَّم الطعام الجاهز الذي كان مُعدّاً من قِبل أهــل البيت،فيحرمــون منه ليقــدم ضمن وجبة الرجال ويمســي النساء ليلتهن بلا عشاء. فتُسكِت النساء جوعهن وأطفالهن بما تيســر مــن أكل وقلّمــا يوجد أكل جاهــز، وفي تلــك الظروف كان الطعام قليلاً على الدوام، وكانت الوجبات الرئيسة إذْ ذاك تتركز في وجبة العشاء، حيث لا وجبة إفطار، ووجبة الغداء تُؤجل إلى ما بعد صلاة العصر، فتتحول إلى وجبة عشاء، فيكون العشاء هو العامــل المهمّ في حياة القُــرى بالذات وعليه المعول، وتوجد بيوت لا تُوقــد فيهــا النّــار للأكل ســوى فتــرة واحدة في اليــوم بأكمله. حيث صعوبة الحياة وشظف العيش، وتكلفة إعداد الطعام لعدم توافر الوسائل الحديثة، وقلّة وجود النقود في أيدى الناس.

ولذلــك كانت الهجرات من نجد إلى البلدان الأخرى للعمل وتحصيــل المــادة على قــدر الجهد المبــذول، والتوفيــق في مجال العمل، والتكيف مع الاغتراب عن الأهل والأولاد.

ومـن المعاناة التي واجهتها في حياتـي المبكرة أني اضطررت للبحث عن عمل بمؤهلي المحدود المتمثل في الشهادة الابتدائية، علـى أن كثيريـن توظفوا بهـذا المؤهل في ذلك العهـد، وجاء دور البحث عن وظيفة تناسب صغر سني ومحدودية مؤهلي، وطرقت أبواباً متعددة، وكانت الفرص الوظيفيه نادرة لا سـيما لأصحاب شـهادات المرحلـة الابتدائية، ولكن تحت إلحـاح الحاجة تقدمت إلـى ديـوان النيابة: نائب الملـك عبدالعزيز فـي المنطقة الغربية سمو الأمير فيصل (الملك فيصل فيما بعد) وانتظرت ماذا يصدر مـن النيابـة، وأخيراً صدر توجيـه لمديرية المعـارف لتعييني بها، وحـين راجعـت مدير عـام المعارف -رحمـه الله- فـي ذلك الوقت أحالني على مدير عام الإدارة.

وبعد تردّد على هذه المديرية كان العرض المقدم لي أنه لا توجد لديهـم وظيفة في الإدارة، وإنما توجـد وظيفة مدرس في إحدى مـدارس مكة المكرمة، ولم يكن هـذا العمل يدور في خلدي؛ لأني صغير السن ومواجهة التلاميذ الذين قد يكون بعضهم يماثلني فـي العمـر، أو يكبرنـي بقليل، وأمـام إلحاح الظـروف الضاغطة قبلـت على مضض، والتزمت بأداء الحصص الموكولة إليَّ، ومنها حصـة الإنشـاء التي أبدعت فيها؛ لأنها تلتقـي مع توجهاتي في

حب الثقافة والاطلاع، وكان لمدير المدرسة -رحمه الله تعالى- نظرة ثاقبة، وقد لمس من توجهاتي ما يدل على ثقافتي وحسن أسلوبي في الكتابة، فكان يعهد إليّ بكتابة المذكرات الصادرة منه بصفته مديرًا للمدرسة إلى مديرية المعارف: بطلب ما يلزم المدرسة من احتياجات سواء ما يتعلق بالأدوات المدرسية أو ما يتصل بالمقررات والكتب الدراسية، أو ما له صلة بالأثاث المدرسي أو ما تتطلّبه أو ضاع المدرسين مما تُمدهم به المديرية.

وهكذا تتنوع الطلبات وتتعدّد المسببات، لكن اللاّفت للنظر في كتابة هذه المذكرات أن مدير عام الإدارة - رحمه الله - قد شدّه الأسلوب الأدبي الذي تُحرر به المذكرات، فطلب من مدير المدرسة نقلي للعمل محرراً في الإدارة العامة للتحرير تحت رئاسته، وهذا ما كان قد رفضه في السابق عندما طلبتُ العمل في الإدارة، لا في التدريس، وانتقلت إلى مديرية المعارف مع محدودية الثقافة وصغر السن، ولا يزال هذا الملمح من حياتي محل ذكرى لا تطفو فوق السطح، وإنما تتصل بالأعماق، وقد شجعتني هذه الالتفاتة إلى الكتابة في صحيفة (البلاد) التي أصبحتْ فيما بعد تُسمَّى البلاد السعودية.

وخلال هذه المدة تفتّحت مواهبي على متابعة القراءة وتغذية ذهني بالثقافة، وكنت - على قلّة الدخل - أحرص على شراء المجلات الثقافية كالرسالة والثقافة والهلال من مصر، إلى جانب بعض الصحف اليومية التي تصدر في مصر، وكان من كتّابها العقاد وطه حسين وأعلام كبار يتعلم المرء منهم متابعة الثقافة، ومن أهم المجلات الثقافية التي كانت تمثل غذاءنا الثقافي: مجلة (الرسالة) التي كان يصدرها الأديب الكبير صاحب الأسلوب البليغ والنهج الرفيع الأستاذ أحمد حسن الزيات.

لقد كانت هذه المجلة مدرسة في مجالها يتبارى للكتابة فيها عمالقة الفكر العظام من كبار رواد الأدب والثقافة في ذلك الجيل الذي بلغ أوَجَه في التقدم في الآداب والعلوم، ومن أبرز كتّاب الرسالة: طه حسين، والعقاد، والشيخ علي الطنطاوي، والرافعي، والمازني وأحمد أمين، ومَنْ هم على غِرار هؤلاء، وفي مستواهم من أصحاب الفكر وروّاد الأدب، من الكتّاب الآخرين الذين لايتسع المجال لسرد أسمائهم.

وكنا في مكة المكرمة شرفها الله تعالى: نتابعها ونحن في بدايات تطلعنا إلى مصادر الثقافة، ونتزّود منها بالوفير من

الآداب والمعلومـات، وتُلبـي احتياجاتنـا الذهنيّـة المتطلعـة إلـى فُرسان الأدب، وكنا نترقب صدور الرسالة كل أسبوع بفارغ الصبر وغاية التلهف؛ لنشبع رغبتنا في إنارة الوعي والتتلمذ على أفكار ثقافيـة مفيـدة، وكانت مكتبـة الثقافة بباب السـلام هي موردنا العـذب لهـذه المجلة وسـواها مـن الصحف التي تأتـي من خارج البلاد، وقد أصدر أحمد أمين مجلة (الثقافة) على نهج الرسالة، ولكنها لم تبلغ شـأوها، ولم تسـدّ مكانها، وإن كانت قد أسـهمت ثقافيـاً بدورهـا إلا أن سـابقتها تلك مـا زالت متألّقـة في ذاتها، ومضيئـة فـي إصداراتهـا واسـتحواذها علـى أفـكار طلائع ذلك الجيل، والاسـتفادة من المقالات التي تُنشـر عَبْرهـا، ويكفي أنها المجلـة التـي جرى تأليف كتاب مسـتقل عنها بعنوان: (الرسـالة والزيات) تأليف د.سـيّد محمد سـيد، وهذا الكتاب من إصدارات سلسـلة الدراسـات الصحفية. إصـدار صديقنا الأديب الأسـتاذ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله تعالى.



# البيئة في الماضي

نشأتُ في بيئة أسرية واجتماعية محافظة يسودها الود والألفة والوفاق. ولعل محدودية هذه البيئة هي التي صاغتها هذه الصياغة الأُسرية المتآلفة المتكاتفة، ولذا فقد كان البُعد عن هذه البيئه يشق علي، حتى تكيّفتُ مع المجتمعات المفتوحة وإِلفتها، وانسـجمت مع الوضع السـائد فيها، وعند هذا المنعطف أعود بالذاكرة إلى رحلتي الأولى نحو مكة المكرمة، وكيف أني كنت متحفّزاً لهذه الرحلة المهمة فـي حياتي وهي الأولى بالنسـبة لي لمنطقـة مكة، وكانت المواصلات في ذلك الوقت في غالبها تتمّ في سـيارات نقل كبيرة تأتي محمّلة بالبضائع إلى الرياض، وتعود شـبه فارغة إلى المنطقة ذاتها. تحمل معها بعـض العوائل والأفراد الذين يذهبون إليها بقصد العمرة أو الحج أو لما سواهما مما تتطلبه الرحلة إلى الديار المقدسة.

وأول مـرة ذهبـت إلى الحج - ولعلي لم أبلغ سـن التكليف- كان مـع صحبة طيبة من الرفاق يرأسـهم عالـم جليل في علمه ومكانته، وهذا من فضل الله علينا نحن المرافقين له.

وبعـد أن أحْرمنـا مـن الميقـات توجهنا مباشـرة إلـى الحرم الشـريف، وسـعدنا بمشـاهدة الكعبة، وبرؤيتهـا لأول مرة: انتاب أكثرنا حالة من الخشـوع والرهبة، والتأثّر الشـديد، فقد هطلت عيوننا بالدموع لهذا المشهد الرباني المؤثّر، وارتفع النشيج ونحن نطوف بالكعبة المشرفة، وهذا الموقف يذكرني بما رواه الشيخ علي الطنطـاوي -رحمه الله- فـي ذكرياته: من أنـه وبعض أصدقائه قـرروا السـفر إلـى الحـج، فطلـب منهـم شـاب كان غيـر ملتـزم مرافقتهم للحج، فرفضوا ضمّه إلى قافلتهم، وقد بذل كلّ رجاء؛ ليوافقُـوا عليه، ولكنهـم أصروا على عدم تلبية رغبته، ولم ييأس مـن مواصلـة الإلحاح، وعندمـا تبين لهـم رغبته الملحّة للسـفر معهم وافقوا على مضض، وتمت الاسـتجابة لطلبه، وانضم إلى المجموعة المسـافرة إلى البلاد المقدسـة، وكان هذا الشـاب - غير المرغـوب فيـه - طيلـة الرحله يعمل مـا يعملون، ويسـتجيب لما يوجّهـون، ولكنـه انفـرد منهم بموقـف خاص، حـين دخل معهم الحرم المكي وشاهد الكعبة المشرفة التي يتجه إليها المسلمون في صلواتهم، فقد انفجر باكياً بكاءً مؤثراً في ذِلة واستكانة وخشوع ورهبة: أمام هذا المشـهد الروحانـي الرائع الذي ما رآه في حياته مـن قبـل، وانخرط في بـكاء متواصل لا يـكاد يهـدأ، وهو يؤدي الأشواط السبعة في الطواف بالبيت العتيق.

وقـد تأثّر أفراد الحملة بموقفه هـذا، وتبدّلت نظرتهم إليه، وتغيّرت صورته عندهم، فبدلاً من الاستخفاف به: تحولت هذه النظـرة إلـى تقديـر له وعطـف عليه، وقـد كان بـكاؤه المتواصل وملازمتـه للحـرم لأداء جميـع الفروض فيه: ممـا حفزهم على محاولة التأسـي بـه والتأثر بموقفه، ولا ريب فـي أن هذا الموقف الخاشع أمام الكعبة يلمسه الطائفون بها، ويندمجون في موكب الطائفـين القانتين المخبتين، وفي ظلال هذه الروحانية ينسـون أنفسـهم وكل شـواغل الدنيا، ولا يذكرون سـوى خالقهم العظيم المتبتّلين إليه في عبادته المؤملين في رحمته.

ولقد مررتُ بهذه التجربة الروحانية التي أفرغتُ فيها دموعي التي انهمرت من عينيَّ، وأنا أحاول التماسك، ولكنّ الدموع تنهمر مدراراً، وفي هذه الرحاب الطاهرة أطلتُ خضوعي وخشـوعي. ولا أزال في شـوق يتجدد إلى الحرم الشـريف بمكة المكرمة، والطواف بالكعبـة المقدسـة، ومـا يحيط بهـا من بهـاء، وما يرتسـم حولها مـن ضياء، وما يتغَشّـاها مـن جلال، وما يحفّها من قدسـية، وما يستشعره الطائف بها من إخبات ورهبة، وما يناله من شرَفِ قُربِه من مولاه الكريم سبحانه، ومناجاته في خشوع وإخبات.

كما أني أتأثر كذلك بالصلاة في الحرم النبوي الشريف والسلام على أشرف الخلق وسيد البشر: حين أقف أمام قبره، مستشعراً في هذه الوقفة حقه علينا الذي هدانا الله به، وأحمد الله تعالى أني فرد من أمته. صدقّت بِرسالته، والتزمت بسنته، وتقيدتُ بكل ماوجّه به ودعانا إليه، فجزاه الله خير ما جَزى نبياً عن أمته. إنّ هذه المواقف الإيمانية تفجّر داخل الإنسان طاقة من الروحانية المؤثرة، فتغشاه السكينة، وتحفّه الطمأنينة، وتمده هذه الطاقه بإحساس صادق يُشعره بأنه قريب من مولاه الكبير المتعال، ويتجسد إحساسه الذاتي بعبوديته لهذا الإله المعبود بحق صاحب العظمة والجلال الذي خلقه وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، فيذكر فضله الرباني عليه ورحمته به، وهو بوصفه إنساناً مسلماً يجب عليه مراعاة حقوق الخالق وأداء واجباته نحوه سبحانه وتعالى، كما يجب أن يكون شعارنا جميعاً نحن المسلمين قول الله -عز وجل- كما في آخر آية من سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وإذا كانت التداعيات كثيرة فإنه لايفوتني في هذه المناسبة السعيدة، وأنا أتحدث عن رحلتي إلى مكة المكرمة: أن أذكر بادرة طيبة وصِلة رحم لا أنساها ما حييت، وذلك أني عندما ودّعت

أختى منيرة - وهي إِحدى أخواتي - قبل السفر احتضنتني كأحد أبنائها ودَعتْ لي بالتوفيق، وطلبت مني الدعاء لها، ولصغارها في الأرض المقدسة، ثم أعطتني (صرة) بداخلها عشرة ريالات فضّة، العملة النقدية المتداولة في ذلك الحين؛ لأستعين بها في رحلتي، وما نسيت ذلك المبلغ الصغير الذي كان في وقته كبيراً بمقياس الوضع الاجتماعي والاقتصادي آنذاك، وأحمد الله أني كنت بارًّا بها في حياتها، وبعد وفاتها، ولاأزال أدعو لها بأن يتغمدها الله بواسع رحمته، ويسبغ عليها رضوانه. وكذلك تشمل دعواتى جميع إِخوتي وأخواتي. رحم الله من رحل عن دنيانا، وبارك فيمن بقي في هذه الدنيا، ومتّعه الله بالصحة الدائمة ودوام التوفيق.



# تنوّع المجتمعات

المجتمعات على اختلاف أنواعها وتعدد صفاتها، وتنوع توجّهاتها: لها عادات وتقاليد متّبعة سلوكياً واجتماعياً واقتصادياً. إلى جانب ممارسات أُخرى تفرضها الطبيعة البشرية، وتقتضيها حياة الشعوب، والعرب بطبيعة الحال جزء من هذه الشعوب المتعددة الأَعراق. المختلفة الاتّجاهات والتوجهات، وهي على اختلاف مستوياتها وتنوّع اتجاهاتها، وطرق حياتها وتباين عاداتها وتقاليدها، فإِنه في هذا السياق تحدث فروق ملموسة بين حياة سكان القرى وسكان المدن، وإن كانت الحياة في نمطها المتّبع ومسارها العام تلتقي في كثير من الموافقات الاجتماعية والتقاليد المتوارثه: بحكم التمازج بين معطيات حواضر المدن ومجتمعات الأرياف، فالقرى الصغيرة تتأثر بالمدن الكبيرة، وتحاكيها في أغلب عاداتها وأساليب معيشتها، وإن كان هناك تفاوت واضح بين هذه وتلك، وذلك للاختلاف في مسار كلٍ منهما،

فالقريـة بطبيعتها تميل إلـى المحافظة على تقاليدها وثوابتها.
أما المدينه فتتطلع إلى تلقي الجديد ونقله إلى عاداتها وإضافته إلى سلوكياتها.

علـى أن الفاصـل الزمني بـين تقدم بعض الشـعوب وجمود بعضهـم الآخر، مما هـو محلّ ملاحظة في الممارسـات الحياتية والتقاليـد الاجتماعيـة والمظاهر العامة، ومن خلال ذلك نلمس الفـروق بـين القُـرى والمدن حتى فـي بلادنا، فلئن كانـت الفروق متقاريـة في العادات المتوارثـة والتجانس ملموس في التوجهات العامـة، فـإن الانفتاح فـي المدينة يختلف عنه فـي القرية: ذلك أن المدينـة لكبـر حجمهـا وتعـدد سـكانها وتنوّع مَـنْ يقصدونها ومَنْ يعملون بها: تتسـع لتقبّل عادات جديدة وممارسـات طارئة، وهي تسـتوعب الأعـداد الوافدة وتؤثـر فيها وتتأثـر بها، ولذلك فإنها تتوسـع في إدخـال تقاليد حديثة، وتنفتح على سـلوكيات غيـر معروفة فـي مجتمعنا ولدى أسـلافنا: ذلـك أن المجتمعات المدنيّـة تنبهـر بالجديـد الوافـد مـن العالـم المتحضـر وتقلّده، ثـمّ إنهـا تسـتورده وتسـتخدمه فـي حياتهـا، ويصبح جـزءاً من منظومتهـا الاجتماعية ولوناً من ثقافتها المعاصرة. أما مجتمع القريـة فبحكـم محدودية السـكان، فإنه يتردد فـي تقبّل الوافد

مـن الغرب. لأنه مجتمع محافظ جدًّا، وسـكان القرية يحاولون الاحتفاظ دائماً بتقاليدهم، وما نشؤوا عليه من محافظة دينية وسـلوكية، ولذا فإن الالتزام بالتقاليـد القديمة جزء من التراث القـديم يجـب الاهتمام به وعـدم التفريط فيه، ومـن هنا كانت المدينة منفتحة والقرية محافظة.

كان الناس في مجتمع القرية متقاربين ومتعاونين، وهم إلى جانـب هـذا التعاون والتقـارب، فإن تطلعاتهم محـدودة ومقيّدة بالإطـار الضّيـق الـذي يحيـون داخلـه، فنظراتهـم لا تتجـاوز محيطهم الذي يعيشـون داخله، ولذلـك فإن أحاديثهم تدور في هذا النطاق المحدود بأسـوار البيئة، وإنْ كانت هذه الأحاديث في امتدادها لا تتعدّى ملامح ذكريات أحداث بسيطة: كتذكّر مناسبة حج بيت الله الحرام أو السفر إلى بعض البلدان العربية لا سيما بلـدان الخليج العربـي، وما يُقابل أحدهم مـن متاعب ويواجهه مـن مصاعـب فـي رحلتـه التـي يتحـدث عنهـا، وكأنهـا مغامرة فـي عالـم مجهـول، وغالباً مـا تكـون المواصلات في ذلـك العهد تتمثل في الجِمال، فهي وسـيلة الاتصالات المعروفة حينذاك، لا سـيما في الطرقـات الطويلة، وكانت التصـورات الذهنية تنطلق

مـن أفكار حبيسـة ورؤية ضيقـة الأبعاد محدودة المسـافات، ولذا فإنهـا مهمـا واتاهـا الخيال فإنها لا تسـتطيع تجاوز ما يرسـمه واقعها القـروي ومحدوديتها الاجتماعية، فليس أمامها متسـع مـن الرؤيـة ولا انطـلاق إلـى مـا وراء النظـرة المقيـدة بالواقـع المعيـش، كمـا في حيـاة القُرى وسـلوكيات سـاكنيها وبسـاطتهم الاجتماعيـة، وكذلك المعيشـية، وهـم معذورون بحكـم الأوضاع الحياتية السـائدة والسلوكيات التقليدية المألوفة، وفي مثل هذا النطاق تدور الأحاديث، لا سيما في الاجتماعات التي تضم فئات منهم. يتسـلّون بالذكريات والتعليق على الحوادث والأحداث من منظورهم الخاص، وحسب مفهومهم المتعارف عليه بينهم.



# أحاديث الماضي

ومن الملاحظ من حضورنا، ونحن صغار لجلسات كبار السن الذين يتخذون من الشوارع غير الفسيحة مجلساً لهم يخوضون في أحاديث متباينة وحكايات متفاوتة، وكلٌ يروي تجربته إن كانت له تجربة، أو تجربة سواه إذا كان صاحبها قد رآها من قبل، وهم لم يعلموها، وفي هذه المجالس المفتوحة للجميع لأنها دائماً تكون على ناصية الشارع: يبدأ القاص مروياته وذكرياته إن كان له ذكريات وفي هذه المجالس الجماعية في الشارع يتعاون أفراد البلدة مع بعضهم، وأبرز ما يكون التعاون في فَتْل الحِبال، ولمن يجهل هذه الحِبال فإنها تُستخرج من ليف النخيل الذي يُبرم بأيدى الرجال، وهم يجتمعون غالباً على جانبيْ الطريق يَحْكون الحكايات، ويستعرضون الماضي مع الحاضر، ويخوضون في روايات منها الصحيح ومنها ما هو دون ذلك، ولكنها بطبيعة الحال مرويات مسلّية وإن امتزج بعضها بلون من الخيال، لكنها

ترفع عنهم الملل والرتابة وتشوّقهم إلى الجلوس أفراداً متعاونين يتبادلون المساعدة فيما بينهم لمن يحتاجها، فهم يفتلون الليف؛ ليجعلوا منه حِبالاً تُستخدم في وسائل الري، وفي أوضاع شتّى من شؤون الحياة التي يعيشونها، فهي تُستعمل في السواني.

ومَنْ لا يعرف هذه السواني، فإنها الحيوانات التي تَسقي النخيل والمزروعات، فتستخدم لاغتراف الماء من الآبار عن طريق: (الغروب) مفردها غَرْب وهو شبيه بالدلو إلاّ أنه أكبر حجماً منه، يُربط هذا الغرب بحبل طويل يجرّه حيوان: إما حمار أو ثور أو جمل، والماء الذي يُنزع من البئر يصبّ في حوض اسمه المصبّ، وينتهي هذا الماء إلى بركة يتجمع فيها هذا الماء، وعند امتلاء البِركة تُفتح لتسقي المزروعات والأشجار والنخيل بحسب اتساع المزرعة وجودة السواني ووفرة المياه في الآبار.

ومن المعاناة المشهودة في هذه العملية المرهقة أن الذين يمتهنون فَتْل الحبال- كما مّر بنا – نجد أيديهم (مثفّنة) وهو تعبير عن تشقق هذه الأيدى لكثرة استعمال فتل الحبال، ولم تبطل هذه العادة التعاونية الشاقة إلا بعد استعمال المكائن

لاستخراج الماء من الآبار وانتهاء دور السواني في هذا المجال، وكذلك دور الرجال في فتل الحبال.

وكان من عادات هؤلاء الذين يتصدون لفتل الحبال بالتعاون بينهم كأفراد: كانوا في فصل الشتاء يجلسون تحت الشمس يسمى (المشراق) أي موضع إشراق الشمس؛ لتُدفئ أجسامهم، وفي فصل الصيف يجنحون إلى الظل الذي يتفيّؤونه، وكلّما قربت من مجلسهم الشمس تحولوا إلى ظل جديد بحسب مدار الشمس، فهم وفق دورانها يتحولون مع مداراتها واتجاهاتها.



# سعادة هؤلاء بالقناعة

ومما لا أنساه، ولم تخنّي الذاكرة في استحضاره، وأنا أتحدث عـن هـؤلاء الملازمـين لبلدانهـم لـم يبارحوها إلا إلـى العاصمة الريـاض إذا دعـت الحاجة، ومما يتجدّد فـي ذاكرتي من الصغر، حتـى بلغـت من العمـر ما بلغـت: أنّ ممن هم أندادي في السـن وأقاربي في النسب. منهم مَن لم يسافر خارج هذه البلاد مطلقاً، ولم يحمل في عمره جواز سـفر؛ لأنه طيلة حياته لا يحتاج إليه بحكـم ملازمته لبلـده، وهم مع ذلك يحيون حياة سـعيدة ليس فيهـا منغصات الحضـارة الوافدة، ولا تعقيداتها الملموسـة، وهم بهذه الحياة البعيدة عن الانشغال الذهني والمسؤوليّات المزعجة، نراهـم أفضل مِنّـا نحن الذين انفتحنا علـى البلدان الخارجية، وارتبطنا بجوازات سفر نحملها في كل رحلة خارجية، وبالدراسة في تلك البلدان والسفر إليها في المهمات، وفي الإجازات، ولذلك فإن أندادنا الذين نشأنا بينهم، وعشنا معهم: هم أهدأ بالاً وأوفى

سعادة. لا يحملون هموماً، ولا يتطلعون إلى متاعب تشقيهم، ولا تسعدهم. وهم كذلك قانعون بما هم فيه من حياة بسيطة ومجتمع محدود. لا تهمهم أخبار عالمية، ولا يتابعون تحوّلات البورصات المالية وتذبذب الأسهم العالمية، فقد قنعوا بالقليل الذي في أيديهم عن الكثير الذي في أيدي الآخرين، وكما قيل في الأمثال القناعة كنز لا ينفد، وقد رأينا نماذج منها في صور بعض مَن نعرفهم، وتربطنا بهم صِلات قرابة أو صداقة.

وإني بما أنعم الله علي من الدراسة العالية والمناصب الرفيعة، فإني أغبطهم على ما منّ الله على هؤلاء الذين يرون ما في أيديهم، ولا يتطلّعون إلى ما في أيدي الناس. كما أغبطهم على راحة البال وهناء النفس، والقناعة التامة بالقليل دون التطلع للمزيد من المال أو الوجاهة الاجتماعية. ومن النماذج في هذا المجال: لي قريب هو عمي الوحيد أحبّه كوالدي. وهو من القانعين لا يتمنى المزيد من المال، وحين اشترى بيتاً صغيراً كان يرى أنه أفضل من القصور، وكثيراً ما يتحدث عن مزايا هذا البيت وراحة السكن فيه، ولا يتطلع إلى سكن سواه، وأذكر أنه رحمه الله تعالى اشترى سيارة صغيرة له ولأسرته: (فلفو) وكانت

هذه السـيارة عنـده مضرب المثل في متانتها وجودتها وسـرعتها وأنها أجمل سـيارة في نظره لا تُدانيها سـيارة أخرى مهما ارتفع ثمنهـا، وتميّزت ماركتها، ولم يتطلع إلـى ما يفوقها قوّة وجمالاً ووجاهـة: مثل السـيارات التي يقتنيها الكبار والموسـرون، وظلت هذه السيارة موضع إعجاب ومصدر انبهار بما تحويه من ميزات فـي مفهومـه قلّمـا تتوافر في سـيارة أخرى، ونحن نسـتمع إليه مذهولين أنه لا يرى سـواها، ولا يتمنـى غيرها، ولم يكن موقفه هـذا تكلفـاً أو تصنعاً، وإنمـا هو طبيعة جُبِـل عليها وخصلة من خصالـه الطيّبه فُطـر عليها، وهذا منتهـى القناعة، ولقد تمنى كثير منّا لو كان مثله في قناعته وبسـاطته وطيبة قلبه واعتزازه بما يملكه، ورضاه بما قُدر له.

ولا شـك في أن القناعة تمنح الإنسـان راحة نفسـية، وتهيئ لـه مكانـة ممتازة في النفوس ومنزلـة لا يبلغها إلا مَنْ كان بهذا المستوى السلوكي المتميز، وقد يفسر بعض الأنانيين هذه القناعة بأنها سـذاجة، وإن كانت كذلك فهي سـذاجة محبّبة. ومما يمكن أن أضيفه إلى ما سـلف عن هذه المزية التي عُرف بها العم، فإنه يشـاركه آخرون وإن كانوا أقلّية، فقد كان شـخص آخر تربطنا به

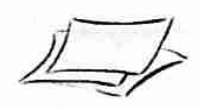
رابطـة النسـب كان هو كذلك ذا قناعة تامة بمـا قُدر له من رزق، وهـو فـي الوقت نفسـه كـريم اليد على قلـة ما في يـده من المال وسـامي الخُلـق رحمـه الله تعالـى، وكنيته: (أبو نجـم) ولا أدرى مـا هو سـبب هـذه الكنية ولصغر سـني فلـم أتمكّن من السـؤال عنهـا، ولكنها ظلت عالقة بالذاكره حتـى الآن، وله مزايا عديدة مـن أهمهـا الكرم مع فقـره، وكان يصلي إماماً بالمسجد القريب مـن بيته وله صوت شـجي يربط المأموم بتلاوتـه والحرص على الصلاة في مسجده.

ومن المشاهد التي تعيها الذاكرة أنه بعد أن سافرنا إلى أوروبا وأمريـكا وبعض البلدان المتقدمة حضارياً، واطّلعنا على مظاهر الحضارة الباهرة والتقدم الكبير والفوارق الكبيرة بين واقع تلك البلدان الراقية المتقدمة حضارياً وبين واقعنا الذي نحياه أدركنا مـدى الفارق. وحـين عُدنا إلى بلادنا الحبيبـة إلينا القريبة إلى قلوبنا: لمسنا تفاوتاً كبيراً بين ما شاهدناه هناك، ومانشاهده هنا، فمـن المفارقـات التي تدخل في موضع الاستشـهاد بالقناعة عن أفـراد من جيلنا، وفي عهدنا: أن أحد الأقارب من أسـرة الأخوال ظلّ ملازماً لبلده لا يبرحها إلى سـواها، ولا يعرف غيرها سـوى

الرياض العاصمة أو مكة المكرمة التي حج إليها في عمره مرة واحدة، وعندما امتدت الحضارة إلى بلداننا ومن بينها جهاز التلفزيون: رأى من خلاله الثلوج تغطي جبال سويسرا، فقال جملته الساذجة: سبحان الله! كلُّ بلدة لها ساكن، وإلا مَن يسكن هذه البلد المحاطة شوارعها بالثلوج، ولا شك أن هذه العبارة الاستنكارية تحتاج إلى عدة علامات تعجب ومثلها علامات استفهام؟!

وأذكر بهذه المناسبة أنني وبعض الزملاء كنا في دورة دراسية صيفية في مدينة: (إكستر) في بريطانيا، وجاء إلينا صديق من بلادنا للالتحاق بهذه الدورة الصيفية، وكان يسمع من الزملاء وسواهم ممن سبقت لهم زيارة بريطانيا: أنها تتميز بالأمطار الكثيرة وأن تربتها خضراء على امتداد النظر وأرضها أشبه ببساط أخضر، وكانت هذه الصورة ثابتة في ذهنه، ولكنه حين قَدِم من لندن إلينا بالقطار أخذ يعتب علينا؛ لأنّنا أعطيناه صورة غير واقعية مِن أنَّ أرضها بساط أخضر كما فهم من بعض الزملاء قبل مجيئه إلينا، وحدّثنا أنه طيلة الساعات التي أمضاها في القطار لم يشاهد ما قِيل له عن هذه الأراضي

الخضراء، وإنما شاهد سبخة ممتدة من لندن إلى أن وصل إلى إكستر، ولما رأينا دهشته من المفارقة بين ما قيل له وما شاهده: أفهمناه أن هذه السبخة التي رآها هي الثلوج تغطي الزهور والأشجار، وليست سبخة كما يظن، وتعجّب كثيراً من المفارقة بين ما كان يظن وما تبين له من حقيقة، وكأنه بموقفه هذا يكتشف شيئاً مجهولاً في جغرافية البلدان، ولا لوم عليه ولا تثريب، فالإنسان ابن بيئته، وما كان يألفه في حياته، فإذا تبدّلتْ الأجواء بما يُغاير ما نشأ عليه من طبيعة قاسية مكفهرّة: كان يألف فيها الصحاري الجرداء والجبال الشهباء، فمن حقه أن يُفسر مارآه من تغطية الثلج للأراضي التي مرّ بها بما ظنه من أن ذلك سبخة، فالصورة الذهنية تظل مرتبطة بما اعتاده المرء في بيئته وما ألِفه في حياته، ولذا فإن صاحبنا معذور في تصوّره الذي لم يخرج عن نطاق رؤيته البيئية في بلاده، ومن هنا جاءت المفارقة المدهشة.



# عودة إلى الماضي

وإذا عُدنا إلى مراجعة الماضي القريب من مرحلة طفولتنا: نجد شعار كبار السن من الأجداد والآباء والجدات والأمهات: قيام الليل لصلاة التهجّد كل ليلة، وصيام النهار كل يوم إثنين ويوم خميس إلى جانب الثلاثة أيام المعروفة بالأيام البيض، وهي ١٣ و ١٤ و ١٥ من كل شهر. ومع صِلاتهم القوية بالله تبارك وتعالى، فإنهم يتحرّجون من أي خطأ أو تقصير مهما كان صغيراً أو تافهاً، ويتحاشون كل ما يظنون أنه يُباعد بينهم وبين الجنة التي وُعِد بها المتقون، ولذا فإنهم يُسارعون في الخيرات، وهم لها سابقون، ومع ذلك فإنهم يخشون ألاّ تُقبل منهم هذه العبادات التي سهروا لها ليلهم، وأظمؤوا من أجلها نهارهم، ولذا فإنهم يحرصون على أدائها والالتزام بها بكرةً وعشيًا، فهم في كل أحوالهم قانتون، وبالأسحار هم يستغفرون، وكانت هذه المظاهر العبادية ملحوظة، لا سيما بين الكبار من المسنّين والمسنّات، ومما لا أنساه في الصغر

أنه خلال مواسم شهر رمضان المبارك: تزداد الطاعات من أجل أن تتضاعف الحسنات، وفي هذا المورد العذب فلْيتنافس المتنافسون.

ويشتد الإقبال على العبادات من جميع الفئات، حيث يُقبِل عليها الرجال والنساء والبنون والبنات: (الصغار والصغيرات) فالحرص على المشاركة الجادة في أداء الصلوات في المساجد لا تقتصر على الرجال الكبار وحدهم، وإنما تمتد إلى النساء، كما تمتد إلى الأطفال من الجنسين، ولعل أكثرهم لم يبلغوا سن التكليف، ولكنها مشاركة وجدانيّة تنبع من تربية إيمانية تأسّياً بكبار الأسرة من رجال ونساء. ولم يكن للكهرباء وجود في ذلك العهد. كما أن المساجد ليست مفروشة بالسجاد كما هو واقع الحال الآن، وإنما يستعمل السراج بدل الكهرباء والحصباء بدلاً من السجاد، وحين يسجد الواحد منا يستنشق بعض التراب، خاصة إذا أطال الإمام السجود، وكثيراً ما يطيله بالذات في رمضان، ولم يكن يوجد حفّاظ للقرآن على غرار ما هو متوافر الآن، ولذا يَعمد الإمام إلى استعمال السراج بما يقتضيه الموقف، فيقرأ في ضوء السراج، فإذا انتهت الصلاة بادر مباشرة باطفائه؛ لأن النسوة يصلين خلف الرجال، خاصة إذا كان الفصل صيفاً، فإن الناس يصلّون في السطوح؛ تفادياً للحر؛ لأنه لا توجد وسائل تكييف ولا ترويح.

ومما هو ملاحظ كذلك تمتع هؤلاء المصلين والمصلّيات بسموّ الروحانية، حيث لا توجد ملْهيات عن العبادة تحدّ من اندفاعهم واندفاعهن إلى المساجد، والحرص على أداء هذه الصلوات الرمضانية، حتى انتهائها: تظلّهم رحمة الله الرحمن الرحيم، وتغمرهم سعادة باهرة، وتحفّهم روحانية غامرة.

وفي هذا الجو الرمضاني المعطر بالروحانية الذي يلامس شغاف القلوب، والمؤطّر بنسمات ليالي نجد العليلة المشهورة برقّتها ولطف هوائها: كانت ليالي الصيف مجالاً للتخفف من عناء العمل في النهار، وملاذاً مريحاً من حرارة الشمس في هذا الفصل، لا سيما حين تتوسط الشمس كبد السماء وتنفث حرارتها التي تكاد تشوي بشرة الإنسان، ولذا فإنّ هدوء الليل يأنس به الإنسان، وما يحمله في أعطافه من أنسام نديّة. حيث يحمل الهواءُ معه روائح الأزهار الزكية. مما ينعش الحياة ويجدّد الأجواء، فيتبدل الطقس من حر لافح في الهجير إلى نسمات رقيقة منعشة في أجواء اللّيالي، لا سيما إذا كانت مقمرة.

وفي شهر رمضان المبارك -إذا كان مَقْدمُه في فصل الصيف- تقلّ الحركة في نهاره، وتكثر في لياليه. كما أن الطابع الروحاني لهذا الشهر الفضيل: يساعد في إنعاش الأجواء، ورفع السأم عن النفوس، ويُقبل الأهالي على الصيام برغبة فيه وحبّ له، ولا أدل على ذلك من أنه بعد أداء هذا الشهر كاملاً: يبدأ الكثيرون على مختلف المستويات، وبشكل مكثف في صوم ستة أيام من شوال، بعد عيد الفطر مباشرة، لا يقتصر صيام هذه الأيام الستة على كبار السن من الرجال والنساء فحسب، وإنما يشارك في هذا الصيام كثير من الشبان والشابات.

وفي هذا الإطار الروحي المتميّز نشعر نحن الصغار بانجذاب لا إرادي إلى المشاركة في الصلوات وأداء الصيام، حتى قبل سنّ التكليف. بل إِننا نُصرّ إصراراً عجيباً، ونلحّ في الرجاء من الأهل بإيقاظنا لتناول السحور معهم، فإذا لم يوقظونا صمنا دون سحور ولا شرب ماء، ونتحمل مشقة في سبيل ذلك. مما جعل أهلنا يوقظوننا تلطفاً وعطفاً علينا.

كما أننا نشارك في صلوات التراويح، وصلوات القيام. على الرغم من الإطاله فيها. لا سيما طول الركوع وامتداد السجود.

مما يشق علينا، ونعجب من تحمل كبار السن لهذه المشقة البدنيّة المرهقة، ولعلّهم وهم يُناجون ربهم ينسون أنفسهم ومتاعبهم من خلال مناجاتهم لربّهم الكبير المتعال.

ونحن بوصفنا صغارًا على الرغم من هذه المشقة البدنيّة والجهد الشاق: إلاّ أننا نُطالب أهلنا بإيقاظنا لأداء صلاة القيام في الجزء الآخر من الليل. نخشع في الصلوات مع الخاشعين، ونتأثر ببكاء الصالحين الأوّابين. ونراها فُرصة رمضانية نسعد فيها روحانياً، وترتفع معنوياتنا؛ لأننا صرنا نُجاري الرجال المؤهلين لتحمل المتاعب، وكان الفِتيان مُؤهلين - بحكم التربية الدينية - للطاعة. لا يَضْجرون من طول الصلوات مع انعدام وسائل الراحة - ذلك الوقت - في جميع المجالات ومختلف الأوضاع، ومع افتقاد مقوّمات الراحة فإنهم صابرون محتسبون يبتهلون إلى ربهم العظيم، يرجون رحمته ويخافون عذابه، وهم على نهج آبائهم وأجدادهم من قبل: تبتّل في العبادة وخشوع في أدائها وحب صادق في المداومة عليها. تراهم ركعاً سجداً يبتغون رضوان الله ويرجون رحمته، وهؤلاء الكبار مع تواصل عبادتهم ومضاعفة هذه العبادة في رمضان أضعافاً مضاعفة فإنهم يخشون عدم القبول، وهم المقربون الصالحون. فنسمع

نشيجهم في سجودهم وابتهالاتهم مُخْبِتين لربهم متضرعين إليه، متفرغين لطاعته متحملين وَعْثاء التراب وخشونة المصلًى، محتسبين ذلك عند ربهم تبارك وتعالى.

وكنا جميعاً شِيباً وشباباً وأطفالاً: نحتسب هذه المتاعب عند الله جل جلاله، فقد كنا نُعاني من السجود على حصباء مختلطة بالتراب باردة في الشتاء وساخنة في الصيف، ولعلها ملوثة لكثرة الأقدام التي تطؤها، ولا تتغيّر إلاّ في حالات نادرة، وفي مناسبات متباعدة، ولذلك فإن ترابها يصبح كالدقيق إذا تنفس المصلي تصاعد الغبار في أنفه، وربما دخل التراب في حلقه، ولا توجد بُسط ولا حُصُر، ولا ما يمكن استعماله بديلاً عن هذا التراب الناعم المثير للمتاعب، ولكنّ الله هو الواقي، ويبدو أن الناس قد اكتسبوا مناعةً مع طول المعاناة وامتداد الزمن، ولا توجد تحسينات لا بمناسبة حلول شهر رمضان أو سواه، فالأرض هي الأرض والمحسنات التي طرأت عليها ما نُقل إليها من حصباء الوادي المجاور، وهذه الحصباء تمكث الأعوام لا تتغير ولا تتبدل كأنها من لوازم المساجد، ولذا فإن الصلاة في مساجد ذلك العهد تؤدَّى على أرض تمثل الطبيعة، كما خلقها الله تبارك وتعالى.

نصلي على أرضها الباردة في زمهرير الشتاء، والحارة في عنفوان الصيف، ونحن سعداء بأننا نعيش على أرضها، ونأكل من خيراتها: نحصد ما نزرع، ونجني ما نغرس، وتجود علينا النخيل بالرطب وبعده بالتمر، ونشرب ماءً عذباً صافياً لم تلوثه البيئة الجديدة.. لا نعرف الاستيراد من الخارج لا سيما الأطعمة المستوردة المعلّبة والمجهّزة قبل مدة طويلة التي يُقبل عليها أطفالنا في هذا الجيل: (مكدونالد وهمبرجر) وما غزانا به الغرب من مثل هذه الأطعمة التي تضر ولا تفيد، ولكنها دورة في عجلة المدنيّة التي تدور بنا وتطوينا في ركابها، ونحن نستجيب لها طائعين أو مكرهين عَبْر تيّار لا يمكننا صدّه، ونتيجة هذه المأكولات السريعة المجهزة تجهيزاً غير صحي، فقد رأينا انعكاس آثارها على أطفالنا وشبابنا، كما نشاهد طابعها السيئ على الأجسام المترهلة والسمنة المفرطة، والأمراض المتكررة والدائمة.

وقد فقد شباب هذا الجيل كثيراً من مزايا أسلافهم الأولين من الرجولة والخشونة والمروءة، فقد استبدلت بتلك المزايا الرخاوة والميوعة وعدم الاهتمام بالمزايا الإسلامية والنخوة العربية، ولن نفلح، ونحن عالة على الغربيين: نأكل مما يزرعون، ونلبس مما ينسجون، ونستخدم ما يصنعون، ونركب ما يُنتجون. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

وبعد انتهاء شهر رمضان المبارك: يفرح الكبار والصغار بحلول عيد الفطر السعيد الذي يُعلن فرحته على وجه كل مواطن، ونقرأ ملامح السرور على محيّا كل شيخ كبير أو امرأة مسنّة، فالكبار والصغار والرجال والنساء جميع هؤلاء تموج بفرحتهم القرية، وتنطلق هذه الفرحة بكل معانيها البهيجة بعد صلاة العيد، وهو يوم ننطلق فيه نحن الصغار للتعبير عن ابتهاجنا بهذا العيد السعيد، وتنعكس سعادته على نفوسنا الغضة، ومشاعرنا المتأجّجة بالفرح الغامر، وفي هذه المناسبة السعيدة ينال الصغار عيديّتهم من الكبار سواء من الرجال أو النساء بحسب القرابة في النّسب، والمجاورة في السكن، وإذا لم تكن العيدية بعض النقود المحدودة، فقد تكون من موجودات ذلك العهد تتمثل في أشياء بسيطة من المأكولات التي يُحتفظ بها لمثل هذه المناسبة.

على أن عيدية النقود قليلة جدًّا، ولا تكون إلا في حالات نادرة من بعض الأغنياء، وهم عدد محدود، وهذه النقود مع قلتها فإنها مصدر بهجة؛ لأننا لم نكن نعرفها في حياتنا إلا في مثل هذه الأعياد، وهي لا تكون إلا مرة واحدة في العام هو عيد الفطر.

أما عيد الأضحى المبارك فيسمى عيد اللحم ليس فيه هدايا للأولاد، فالناس غالباً ينشغلون بذبح الضحايا وتوزيع أجزاء

منها على الأقربين والمجاورين والمستحقين ممن لا يملكون قيمة الأضحيـة، وهذا العيد يمتد ثلاثة أيام هي مدة ذبح الأضحيات، ولذلـك فالذيـن لديهم وصايا أضحيات فإنهـم يذبحون كل يوم عـدداً منهـا. وهي تتمثل فـي الخراف والبقر والإبـل، وكل منها لا بـد أن يكون فـي عُمر معين، وأن يكون في حالـة جيدة، وفي هذه الأيـام الثلاثة تموج البلدة بفرحـة متوهجة. خاصة وأن اللحوم لا تتوافـر إلا في مناسـبات منها حلـول عيد الأضحى، أو حضور ضيـوف لهـم مكانتهم، فتذبح من أجلهـم الذبائح، ويُدعى لهذه الموائـد الكثيـر مـن الجماعـة، ولها نظـام متّبع، وهو أنـه بعدما ينتهي الضيوف ومَنْ في مسـتواهم مِـنْ علية القوم من الطعام، يأتـي بعدهـم الرجـال من أهل الدعـوة، وبعدهـم الأولاد ومعهم الصبيـان الصغـار، ثم بعدهم يجيء دور النسـاء من أهل البيت، وهـنَّ آخـر دفعـة، هـذا إذا بقـي شـيء مـن الأكل وإلا فعليهن أن يعملن لأنفسـهن ما يُسـكت جوعهن، وبهذا النظـام الاجتماعي المتّبع تكون الموائد والطريقة المتبعة فيها.



# كيف عاشوا؟

كيف عاش هؤلاء الإخوة الكرام، بعيداً عن صخب الحياة ومزعجاتها، وتطور الحضارة وتداعياتها، وتقلب الدنيا وانتكاساتها، وتحولها في مدّها وجزرها. كانت تغمر مجالسهم المتواضعة حكايات ساذجة، وروايات مستهلكة، وقصص من الماضي. بها من الخيال أكثر مما بها من الواقع، ومما لا أنساه في حياتي المبكرة تلك الحكايات التي كانت تُروَى على أنها حقائق. في حين أنها في حقيقة الأمر خيال أو أشبه ما تكون بالخيال. لو جرى تحليلها لما كان لها معنى في الذهن، ولا حقيقة في الواقع المألوف، ولكنهم يأنسون إلى تلك التسليات، وهو ما يتفق مع مُعطيات واقعهم الهادئ المريح، وانسيابيّة هذه الأحاديث في المجتمع الصغير الذي يضمهم، والذي يندمجون فيه وَفق الحدود المناسبة، وهم إلى جانب محافظتهم الشديدة، فإنهم غير متشدّدين في تصرفاتهم، ولا متعصبين في ممارساتهم،

ولذلـك كانـت هذه السـيرة الحياتيـة المعتدلة لهـا انعكاس على تربيـة أولادهـم تربية صالحة، فقـد ألحقوهم بالمـدارس وهيؤوا لهـم الدراسـات الجامعية، وشـجعوهم على السـفر إلـى الخارج للدراسات العليا.

ومن هؤلاء الأولاد سـواء أكانوا (بنين أم بنات) مَن عاد، وهو يحمل الدكتوراه، ومنهم من كان من أصحاب التخصصات العليا التـي كانـت تفتقر إليها البـلاد، فملؤوا الفـراغ الوطني في هذا المجـال، وارتقوا إلى مناصب مرموقة، وأصبحوا سـفراء لبلادهم بالتفـوّق في العلـوم، والتقدم في المناصب التي شـغلوها، وكانت تُشـغل قبلهم بمتعاقديـن، والمجتمعات الصغيرة تتشابه في طرق حياتهـا، وفـي نسـق عيشـها، وتتماثـل فـي توجهاتهـا وعاداتها، وتنسـجم فيمـا بينها فـي المظاهر وفي الحقائق، حيث تسـودهم القناعـة التامـة، كمـا يسـودهم التعـاون الدائـم، والوقـوف بين بعضهم وبعضهم الآخر في السراء والضراء، وكأنهم أسرة واحدة، ذات نهج واحد ورسالة واحدة.



# بين ماضٍ وحاضر

سافرت إلى أقطار عديدة، وطوّفتُ في آفاق بعيدة داخل بلادي وخارجها في أقطار أخرى: درست وتفوقت في الدراسة، ومارست أنشطة متعددة ومتنوعة، ونلتُ المنصب الكبير والجاه الواسع، ولكنْ ولا بد من (لكن) هذه: حين أعود إلى زمن النشأة، وأستقرئ ملامح من وقائع نَشأتي وارتباطاتي وصِلاتي بمن لهم صلة نسب وقرابة، أو جوار وصداقة، وألتقي بأقاربي الذين أمضيت بينهم بدايات خطواتي الأُولى في هذه الدنيا، ويمثل ذلك طليعة مشواري الأول الذي يجسد مرحلة طفولتي وصِباي: أجد أني نشأتُ حيث نشؤوا، ودرجت حيث درجوا، ودرست معهم في (الكُتّاب) أبجدية الحروف الهجائية، وعرفنا من خلال معلّم الكتّاب بداية القراءة، وفي طليعتها سور من القرآن الكريم، وقد وقف كثير من أقراني في التعليم عند حدود ما تلقّوه في الكتّاب. وبعضهم الآخر -وأنا من بينهم- انتقلنا إلى المدن، وفيها توسعت

مداركنا بحكم دراستنا في مدارس المرحلة الابتدائية التي تؤدي بعدها كل مرحلة إلى ما بعدها، حتى الجامعية، وعندما أتأمل الراحة النفسية التي كان يتمتع بها زملاؤنا السابقون الذين لم يكملوا تعليمهم، والحياة الاجتماعية التي يسعدون فيها، والمسيرة الإيمانية التي يحيونها، وقناعاتهم الإنسانية التي يتميزون بها، ومحافظتهم التامة التي التزموها بعدم السفر خارج هذه البلاد، إلاّ إلى مسافات قصيرة، وإلى أماكن قريبة، وعَبْر حالات فردية محدودة، وقد ألِفوا هذه الحالة وحافظوا عليها، لا يتطلعون إلى ثروة، ولا يهتمون بمناصب، ولا يسعون إلى جاه، فهم بما هم فيه قانعون: صحة دائمة وعِيشة كفاف يرونها خير ما في الدنيا، قانعون بها، وبما يتمتعون به من نعمة محدودة يدعون الله تعالى أن يحفظها من الزوال، لم يلوثوا أبصارهم بمرئيات في الخارج تجرح نقاء سريرتهم، وتلوّث حسناتهم.

فعدم سفرهم إلى البلدان الخارجية المتحررة: صانهم عن النظرات المتطفلة نحو أشباه العرايا والمناظر التي تؤثر في مسيرتهم الفاضلة، ولذا تمنيت لو أني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً. لأجد الراحة النفسية التي تنقص أصحاب المراتب

الكبيـرة والمناصـب الوثيرة. والجاه الواسـع والمظاهـر الصاخبة، وكلها عند التأمل لا تُسعد صاحبها دائمًا، وإنما شقاؤها أكبر من إسعادها، وضررها أكبر من نفعها، ولكن الإنسـان مولع بزخرف الحيـاة الدنيـا وزينتها. ولذا أجد هؤلاء الذيـن أمضوا أعمارهم ملازمـين لبلادهـم هنا سـعداء بحريتهم الذاتيـة، وانطلاقاتهم المحليـة، وقناعاتهـم بمـا هـم فيـه مـن حال، فآسـى على سـوء حظـي متمنيـاً لو أني لم أدرس في جامعة، ولم أتقلّب في مدارج الوجاهـة، وتعـدد المناصب، وسـهر الليالي، وتعب النهـار في أداء العمل المتواصل.

وحـين أنظـر إلى نفسـي بعد تعاقب السـنين، ونفـاد العمر، والوقوف حالياً على حافة القبر: أجد رفاق الصبا -الذين أشرت إليهـم فيمـا سـلف- أهدأ بالاً وأسـعد حـالاً مني، ومـن كثيرين تسـنموا المناصب الكبيرة وتخلّوا عنها، أو هي تخلت عنهم، ومَنْ كانـت لديه اهتمامات ثقافية شـغل وقتـه بها. أمّا مَن لم يكن له اهتمام بالثقافة ولا مشـاركة في احتياجات المجتمع، ولا نشـاط محمود، فإنه يحيا بلا رسـالة، ويعيش بلا هدف، وحين أسـتعيد فـي الذهن تلك المجالس المفتوحة بلا تكلـف، والقلوب الطاهرة

بـلا تصنّـع: أجد الفارق الواضح بين فريـق وفريق. هؤلاء الذين عملوا لآخرتهم وقنعوا بواقعهم يحيون في وهج المعاني الإنسانية المتسـامية، جعلتهم يحتلّون هذه المكانـة العالية التي تمنيت لو أنـي بقيت مثلهم خاليـاً من الهموم، متفرغاً للطاعة منسـجماً مـع القناعة. لقد شـاب رأسـي قبل أن تشـيب رؤوسـهم، وأرهقت فكري وقد ارتاحت أفكارهم، وأتعبت جسـمي بما لم تتعب بمثله أجسـامهم، وكلمـا مضيت في المقارنة أجدها لصالحهم، فأسـأل الله العفو والمغفرة على تقصيري.



# وقفة مع النفس

وجدت نفسي قد طوتني الدنيا، وسارت بي الأيام من حيث أريد أو لا أريد، فإذا بي قد اجتزت مراحل الدراسة التي تؤهل للتعليم الجامعي، فتخرجت في الجامعة وعملت في الدولة، وتقلبت في مناصب لها أهميتها ومسؤولياتها، وإذا كنتُ قد نلت مكانة اجتماعية لها بعض التميز فإنى قد خسرت استكمال الدراسة العليا «الماجستير والدكتوراه» التي كنتُ أطمح إليها وأسعى لها، وأتطلّع إلى تحقيقها، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، والأماني لا تكفي لتحقيق طموح الإنسان، فالرياح تجري بغير إرادتنا، والقدر هو الذي يرسم خُطانا، وأنا أؤمن كلَّ الإيمان: أن ما كُتِب لي، وما كُتب علي. لا بد أن يتحقق كما شاء الله تبارك وتعالى لا كما شئت، وكما أراد سبحانه لا كما أردت، فأنا عبد يتقبل ما يجري له أو عليه من مولاه بإيمان لا يخالجه شك، وبتسليم لا ينازعه تردد.

وأحمد ربي تعالى على ما منّ به عليَّ -سبحانه- من جاه ومال، وإن كنتُ في الحقيقة وفي مساري الاجتماعي لم أهتم بهذا الجاه، فأنا من طبعي التواضع وإنكار الذات، وأعُدّ هذه الخصلة مِن أوفى نعم الله التي غمرتنى. أما المال فقد كنتُ لا أملك سوى دخل محدود، فأنعم الله علي بدخل متوسط، لا غنىً يُطغي ولا فقر يُزري، وما كان المال موضع اهتمامى ولا غاية آمالي، ولا أزال بحمد الله غنياً بالله عن الناس لا أتطلّع إلى ما في أيديهم ولا أحسد أحداً سكن القصو وعاش عيشة مرفّهة، ولم يكن المال عندي غاية وإنما وسيلة، فالقليل منه -في مفهومي الواقعي- يكفي المرء إذا كان يتمتع بشيء من القناعة ويسعد بها، وأنا سعيد بما يكفيني ذل السؤال ويُسعد أفراد أسرتي عن التطلّع لما عند الآخرين، والمال قد يكون جناية على صاحبه إذا لم يطهّره بالزكاة والصدقات؛ لأن الحساب بعد ذلك في الآخرة عسير. من أين اكتسبتَ أيها الإنسان، وفِيمَ أنفقت. إنها مسؤولية صعبة لمن يستشعر المصير النهائي الذي ننتهي إليه يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا يُفيد المسلم إلا ما قدمه بين يديه.

***

وإني ألوم نفسي في تقصيري في صلة الرحم، وزيارة الأقارب لا سيما مَنْ تربطني بهم رابطة وثيقة، وذلك لكثرة الأعمال

المنوطة بي وازدحام وقتي بالمسؤوليات، مما شغلني عن بعض الواجبات، ومن سيئات الانشغال بهذه المسؤوليات: أني صرت لا أملك وقتاً أُؤدي فيه واجبي نحو أولئك الذين أحبّهم، ولا أنسى ذكريات الصبا معهم. وقد مرت بي مدة عصيبة كنتُ فيها مشغولاً ليلاً ونهاراً، ومن خلال هذا المارثون المتواصل لم أستطع أن ألتقط أنفاسي للوفاء بالواجب لمن لهم حق علي. سواءً مَنْ تربطني بهم صلة قرابة، أو من الذين عشت معهم وبينهم قبل الاندماج في الأعمال الشاقة والمسؤوليات المرهقة، فلقد شغلتني الأعمال الرسمية حتى لم أعُد أستطيع أن أُوفِّق بين ما هو مطلوب مني أداؤه بإتقان، وما هو مطلوب منيّ نحو أولئك الذين افتقدوني بينهم بالمشاركة في أفراحهم وحضور المناسبات التي يجتمعون خلالها في أعياد أو في رحلات ربيعية محببة، أو غير ذلك مما له علاقة مباشرة بالرابطة الأسرية أو الاجتماعية، وبأقران الطفولة على مهاد الأرض التي كانت تضمنا جميعاً.

وقد تألمت كثيراً عندما وجدت نفسي في ظل قيْد الوظيفة وكثافة المسؤولية: عاجزاً عن الزيارة والمواصلة المطلوبة، وحين أُتيحت لي الزياره أدركتُ مدى تقصيري، وندمتُ على غفلتي،

وقد لفتَ نظري وأحزنني أني رأيت في البلدة التي عشت مدة من الزمن في ربوعها: بعض مظاهر البؤس لا سيما ما شاهدته على الأطفال من ملابس رثة وسِمات ترتسم عليها معالم الحاجة، ولهذا فقد انعكس هذا المشهد على نفسيتي، وعانيت من سطوة هذا العقوق مني الذي فجّر في داخلي ينابيع العطف، وتساءلتُ في حسرة: أليس من الممكن أن تكون أسرتي مثلهم؟ لو لم أشقَّ طريقي فأتعلّم وأبلغ المناصب التي بلغتها بفضل الله علي سبحانه؟ وحمدتُ الله على أن هيأ لي الاطلاع على أوضاعهم.

لقد كنت مقصراً في ابتعادي النسبي عن التعرف على أحوالهم والاطلاع على بيئتهم واحتياجاتهم، وعاتبت نفسي، وطال العتبُ مَنْ لم يبلّغني عن وضعهم، وانداح في ذهني خاطر مزعج يتمثل في هؤلاء الذين يلبسون أسمالاً بالية من الثياب التي لا تليق بهم، ويعيشون على الكفاف من القوت الخشن: كيف تكون معالجة هذا الواقع السيئ، وعلى الأخص أن بعضهم تربطني به رابطة صلة القرابة، ومن لم يكن كذلك فرابطة المواطنة: ودارت في الذهن تساؤلات: لماذا جرى هذا التغافل

أو الغفلة عن تدارك هؤلاء؟ أليس في ذلك دفع لهم لاعتناق مبادئ هدامة؛ نكاية بمن يرونهم يتمتعون بمباهج الحياة، وهم محرومون منها؟ ولماذا هم يُحرمون، والآخرون يعانون من تُخمة الترف؟! وحين وصلتُ إلى هذا المنعطف الحادّ في السلوكيات البشرية: انداحت في ذهني صور من الانزعاج وتحمّل المسؤولية. كيف غفلنا عن واجبنا نحوهم، ونسيناهم في غمرة انشغالنا الدنيوي؟!

ولم أغفر لنفسي هذا الموقف، فإذا تحمل الكبار منهم قسوة المحن بحكم عمق إيمانهم الثابت ويقينهم الدائم؟ فما الذي يكفل عدم تحوّل أولادهم الذين يقرؤون الصحف ويسمعون الأخبار ويشاهدون ما تبثه أجهزة التلفاز من صخب حضاري ومظاهر مدنيّة؟! فما هو الكفيل بِضمان اعتدال أولادهم واستقامتهم على النهج القويم؟ وهم يقرؤون ويسمعون ويشاهدون الأجهزة الإعلامية على مختلف وسائلها وتعدد ألوانها واتجاهاتها، ويرون صوراً تمثل مشاهد من العالم المتقدم وانطلاقاته الواسعة: لذا فقد فرضتُ على نفسي برنامجاً يكاد يكون أسبوعيا -بحسب إمكاناتي الوقتيّة- أقوم كل يوم خميس تقريباً بزيارة تفقدية

لبيوت أعرفها في البلدة. أحمل في سيارتي مجموعة من الأطعمة المتنوعة والمأكولات المناسبة، وأنواع الحلويات للصغار، وبعض الملابس لهم، وقد أصبحتْ هذه الزيارات مواسم أفراح لدى الأُسر المحتاجة. تُشعر أولادهم بالسعادة الغامرة، ويتسابقون حين يرون السيارة قادمة نحو بيوتهم، وأنا أقودها بنفسي، وأُنزل ما فيها بذاتي، وأسعد كل السعادة عندما أرى وجوههم الضاحكة في استقبال هذه الهدايا التي من شأنها أن تزرع الفرحة في قلوبهم، وترسم الغبطة في نفوس الجميع.

وبمثل هذه الزيارات الأسبوعية والشهرية نستطيع أن نحمي أجيالنا الفتيّة من الشيوعية المغلّفة باسم الاشتراكية، وهما وجهان لعملة واحدة تتمثل في إغراء القطيع من الجياع بهذه المبادئ المزيّفة، وهي تحمل في مضامينها عنواناً صارخاً لتخدير الفئات المخدوعة، ولمعاناً مزوّراً بالوعود بالعيش السعيد لمن انضم إلى تلك المبادئ التي يروّج لشعاراتها أفراد من المتاجرين بالمبادئ الذين يعتنقون المذاهب الهدامة التي تهدم ولا تبني، وتُفقر ولا تغني، وتخدع الرعاع بأنها ستفتح أمامهم أبواب الرفاهية وسعادة الحياة، وبهذه الوعود الكاذبة والأحلام

الخادعة: يرتقي هؤلاء المفسدون على أكتاف المحرومين المغرر بهم، وصار هدف كل من قام بانقلاب وتسنّم سدة الحكم: أن يُعلن الاشتراكية منهجاً للدولة ونظاماً للوطن، ويحيط نفسه بهالة من التمجيد والتعظيم، ويدع أقاربه وحاشيته يعبثون باقتصاد البلاد، ماداموا في ركابه يحكمون بالسلطة والسوط، فلا يُسألون عما يفعلون من استغلال الشعب والعبث بموارد الدولة، ويجد المواطن نفسه قد أجهضت الحركة الانقلابية فرحته بما يعيش خلاله من فقر وتخلّف، في حين يعيش الانقلابيون وأتباعهم في البذخ والإسراف وتبديد الثروة الوطنية استجابة لنزعة فردية دكتاتوريه تسلطية.

وعندما يفيق هؤلاء المحرومون الجياع على الواقع المحزن: لا يجدون سوى صدى الشعارات البراقة ونسج الأكاذيب الخادعة، وتأتي هذه الصحوة المتأخرة ليروا أنفسهم في أحلام سرابية، وأن ثروة الشعب قد تبددت على نزوات مدعي الاشتراكية، ومَن يروجون لها وهم أبعد ما يكون عن تطبيقها، لا يعرفونها إلا في خطابات الحاكم المستبد ونزوات الحاشية الفاسدة. ومما استقر في ذاكرتي: الوصف الرائع البليغ للحكام الذين رفعوا

راية الاشــتراكية وفرضوها على شـعوبهم، وذلك ما كتبه الأستاذ إحسـان عبـد القـدوس الصحفي المصري المشـهور فـي صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٧٧/٠٦/٣٠ م ونصه كالآتي: (أصبحت الاشتراكية أقـرب إلـى الحـذاء في قدمَـيْ الحاكـم، وكل حاكم يختـار حذاءً على مقاس مزاجه السياسـي). إنه أبلغ وصف لهذه الاشـتراكية والمسـتغلين لها، وشـواهد الواقع كثيرة، ولا أجد أوْفى ولا أصدق مما عبّر عنه هذا الصحفي المتألق رحمه الله تعالى.



# الزواج

تمشـياً مـع مقتضيات الحياة، فإنه لا بـد لكل فتىً يبلغ من العمـر مبلـغ الشـباب أن يفكر في الـزواج، وإذا هو لـم يفكر فيه بذاته، فإن أهله وذويه ومحيط أسرته وحتى أصدقائه: كل هؤلاء يتطوعون بالمشـورة عليه بالزواج ويحضّونه على إكمال دينه كما هو في المنظور العام، ومنهم مَن يتطوع بذكر بعض الأسر اللاتي يرشحها من جانبه للمصاهرة، وإذا كانت البلدة محدودة السكان والأُسـر بطبيعـة الحال معروفـة ببنيها وبناتها، فإن من السـهل إيراد اسم الأسرة التي يمكن أن يتقدم إليها لخطبة ابنتها، وهذه المرحلـة التمهيديـة هـي مفتاح المصاهـرة المنتظرة والتي تسـود المجتمع المحدود آنذاك، ولعلها متّبعة حتى الآن.

كانـت الوالـدة في مقدمـة الباحثات عن الزوجـة، ويجانبها كثيـرات مـن الأخـوات والقريبـات. يؤيدهـنّ كثيـر مـن الإخـوة

والأقارب والأعمام والأخوال، وكانت الترشيحات لا تتجاوز نطاق البلدة وأُسـرِها، ولقد كان في ذلك الوقـت من المتعذر وجود فتاة متعلّمـة أو لديها قسـط مـن المعرفة، فقد كانـت الفتاة حينذاك يقتصر تعليمها على ما تمارسـه في بيت أهلها من شـؤون البيت ومـا هـو داخل هذا النطاق، وليس لها أدنـى إدراك أو اهتمام بما يتصـل بالثقافة والعلم، وذلـك لافتقار الحياة الاجتماعية فيما سلف إلى تعليم البنات والارتقاء بهن ثقافياً واجتماعياً على أن لا يكون إدراكها محدوداً بأسـوار المطبخ وتنظيف البيت ليس لها أدنـى حظ مـن التعليم، ولذا فإنهـا تفتقر في حياتهـا الزوجية إلى كثير من مقومات سيدة المنزل، ولا بد من وضع اعتبار معيّن لتجانس ثقافة الزوجين بما يُعين على الانسجام بينهما وإقامة أواصر المودة التي يجب أن تسود بين كل زوجين.

ولأنـي قـد نلت قسـطاً مـن التعليم يشـفع لـي بالبحث عن مواصفـات الزوجـة التـي أتوقـع الانسـجام معهـا، وأرضاهـا لي شـريكة حياة، وقد أعلنت رأيي هـذا على ملأ من الجميع، خاصة وأن عـدداً من أبناء الأعمام وأبناء الأخوال قد تزوجوا قبلي، وهم في مثل سنّي، ولذا فإنه لا يصح في المفهوم العام أن أتخلّف عمّن

سبقوني، وفي هذا المضمار تحمست الوالدة تغمدها الله بواسع رحمته، وصارت تسرد لي أسماء ومواصفات البنات اللآتي هنّ ملء السمع والبصر، وتُعدّد مزايا كل واحدة منهن من وجهة نظرها، وعندما صارحتها بوجهة نظري قالت عبارتها التي تحيطها البراءة وتؤطرها الطيبة: (خذْ أم شوشة حتى تجي المنقوشة)، وقد أجبتها ومَنْ يستمع إلى كلامها بقولي: وما الذي يضطرني لأم شوشة، وبإمكاني الحصول على المنقوشة، وانتهى النقاش عند هذا المنعطف، وكان ذلك المفهوم سائداً في العلاقات الزوجية، إذْ ذاك، فالزوجة أو المرشحة للزواج ليس لها ذلك الاعتبار المنظور في العلاقات الثابتة، وإنما تخضع للتقلبات المزاجية للزوج.

وفي هذا الإطار كانت النظرة لاختيار الزوجة، وأنه يمكن التمتع بها إلى حين العثور على مَن هي أفضل منها، وبما لدي من حِس إنساني وادراك ذاتي، فإني لم أوافق على زواجٍ مثل هذا، ذلك أنه يتجسد في شعورى أن الارتباط لا بد أن يكون دائماً، فلا أتزوج واحدة وأنا أُضمر أن أتخلّى عنها بعد مدة، مما يمثل جناية عليها، وقد تمتد هذه الجناية فتشمل أولادي منها، والزواج لا بد أن يترتب عليه التزامات أهمها الإنجاب وارتباط الأولاد بزوجين منسجمين في حياة ثابته ومستقرة لا يُغيرها تحوّل ولا يطويها مزاج.

وفي بلد شقيق كان القدر يهيئ لي زوجة المستقبل التي كُتبت لي، وأنا أبحث عنها، لقد كانت المصادفة وحدها هي التي قادتني إلى رؤية فتاة شدّت انتباهي وتوقفتُ كلياً عندها، وانجذبتْ إليها مشاعري، وكانت نظرة محدودة ومصادفة عابرة. لكنّ القدر يُسهّل الصعب، ويقرّب البعيد، ويطوي كل مسافة، ومن تمام التوفيق أنها مواطنة سعودية، وتم الزواج وأنجبنا الأولاد وعشنا حياة يسودها الوئام والوفاق وتظلّلها السعادة الوارفة، وسارت سفينة الزوجية في بحار هادئة يدعّمها الودّ ويسودها الاستقرار، ويحرسها التفاهم الواقعي بين الزوجين، وكان شعار هذه الحياة الزوجية الآية الكريمه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

عشت مشدوداً إلى كيان الأهل ومرتبطاً بالأسرة، وكانت الأعراف السائدة توحي بما يشبه الإلزام بأن يتزوج المرء من قبيلته، وأن يحجر ابن العم ابنة عمه، ولعل هذه الروح التي كانت سائدة في المجتمع حينذاك: قد أملتها الظروف المحافظة

التي تُحيط بالأسر في نطاقها الضيّق، قبل الانفتاح الحالي الذي فكّ القيود وأزال السدود، فقد تطورت الأوضاع، واتسعت الآفاق، وتعددت مناحي الحياة، فصار أبناء القبائل يسافرون في بعثات دراسية إلى الخارج للولايات المتحدة وأوروبا وأستراليا وسواها، وامتدت مسارات الحياة الاجتماعية وانتشرت مجالات التعليم وانفسحت رقعته، وأصبح ابن الصحراء يركب الطيارة إلى أقصى الأرض؛ لطلب العلم والتزود من الثقافة الإنسانيه، والاتصال بعوالم جديدة، والعيش في جو مفتوح يختلف عن جو القرية ونظام القبيلة.

وفي ظل هذا التطور تبدّلت الحال غير الحال، وتغيّرت النظرة الضيقة إلى نظرة فسيحة، واختلفت الرؤية المحدودة إلى آماد واسعة، وتكيّفت الأوضاع القديمة بامتزاجها بالأوضاع الجديدة، ولأنّ التطور يسبق التحجّر، فقد انطوت تقاليد قديمة وحل محلها ثقافات حديثة صار لها انعكاس على المجتمعات الراكدة والتقاليد الجامدة، وفي ظل هذا الواقع الجديد الذي لم يُعدْ الآن جديداً، فقد شمل التطور الأفكار والعادات والتقاليد والتعليم والثقافات، وكل مناحي الحياة. ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ٤].

# كيف عاش جيلنا؟!

لم يكن جيلنا في بداياته يتعامل مع الحضارة الراهنة؛ لأنه لـم ينفتـح على العالم الخارجـي المتحّضر لأسـباب عديدة. من أهمهـا تباعد المواصلات في ذلك الوقـت، وعدم توافر الاتصالات قبـل ثـورة الاتصالات وتطـور التقنيات كما هـو واقع الحال على النمط المشـاهد حالياً، فقد كانت الشـعوب تعيـش متباعدة عن بعضهـا، تحكمها فـوارق كبيـرة: ثقافية واقتصاديـة واجتماعية وسياسـية، ولـم تكن قد تحققت هذه الطفـرة الحضارية المذهلة التـي اقتحمت الأجواء وتخطّت جميع العوائق وفرضت نفسـها على شعوب الدنيا كلها.

لقـد كانـت الطبقـات الاجتماعية في بدايـة جيلنا لا تمثل تباعـداً شاسـعاً بينها، فـكل الطبقات: العليا والوسـطى والدنيا تسير على نهج متماثل لا يُلحظ فيه التمايز الكبير، ولا التبايـن الملموس، ولا الفوارق الواسعة: ذلك أن طبيعة الحياة وإمكاناتها

وضيق فرص الكسب ومحدودية الإطار الخارجي: كل هذه العوامل مما حجّم دور كل طبقة اجتماعية، وجعلها تسلك طرقاً في العيش متشابهة. تنعدم فيها التمايزات الواضحة الموجودة الآن، فقد كانت تلك الطبقات يصعب عليها تجاوز الإِطار الحياتي الواقعي الذي يحكمه سقف محدّد. وذلك بِحكم مسيرة الحياة في بداية هذا الجيل، وبُعْدها عن التعقيدات الحضارية التي جاءت في ركابها الطبقية المتفاوتة. نتيجةُ توافر الثروات وكثرة وسائل الرفاهية، والتأثر بالمجتمعات الخارجية تأثراً واسعاً، وتقليدها تقليدَ متابعة وانقياد.

الإنسان هذا الكائن البشري له رسالة في هذه الحياة مطالب بالقيام بأدائها. كما أن عليه كذلك واجبات مطلوب منه القيام بها، وفي مقابل هذا وذاك، فإِن عليه أن يُوازن بين أهمية التوفيق بين رسالته في دنياه وبين واجباته لأُخراه، على قاعدة: (اِعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وهو بين أداء الرسالة وتأدية الواجب: مطالب كذلك في مساره الإنساني بالتوازن في هذه المسيرة الحتمية التي من

مقتضى وجوده في هذه الدنيا الالتزام بها، كما أنه من الأهمية بمكان أن يُدرك ضرورة دوره المطالب به، وأن يُرشّد مسيرته وفق مقتضى الناموس الكوني، وذلك لكي ينسجم مع الأوضاع التي تتطلبها طبيعة الزمان، وتستدعيها مواكبة حركة العصر الذي يعيشه، والمستجدات التي طرأتْ على دنيانا سلَفاً وخَلَفاً: وفقاً لتعاقب العصور وتتابع العهود، إلى جانب ما يستجدّ مع مرور الأزمنة من تقدم تقني، وتطور حضاري في شتَّى مرافق الحياة وعلى مختلف الأصعدة التقنية ومقتضى واقع الإنسانية.

عندما أعود بالذاكرة إلى صورة مجتمعنا في بدايات حياة جيلنا الذي يوشك الآن على الانتهاء بغياب شمسه، من خلال رحيل أكثر المنتمين إليه: أجدني مدفوعاً بقوة الواقع المعاصر إلى تلك البدايات التي تشدّني إليها الذاكرة نحو مرحلة الطفولة، وحينئذٍ أجد أمامي ركاماً من الصور الاجتماعية تبدو مختلفة الألوان متنوّعة الأشكال، متعددة الرؤى، مختلفة الأبعاد: كل صورة تحمل في تضاعيفها حقبة زمنية من مراحل الزمان، وأنواعاً شتى من تطورات الحياة: متعدّدة في اتجاهاتها، متغايرة في توجهاتها، لكل اتجاه طابع، ولكل توجّه طبيعة.

كان جيلنا الذي بدأتْ شمسه في المغيب، وأفراده في الاختفاء من هذا الوجود: قد نشأ في ظل حياة ذات أبعاد محدودة محصورة بين جدران مجتمع تسود البساطة كلَّ أطيافه، وجميع فصوله، وفي هذا الإطار المحاط بسياج منيع من التقاليد الاجتماعية الصارمة، والعادات المرعيّة الالتزام، والأعراف البيئية المتّبعة: تضيق الدائرة فلا تتسع لكل التطورات الحديثة التي كانت تُقابل بالاستنكار والاستغراب، وبكثير من مواقف التعجب وبواعث الاستفهام، وذلك يصدر وَفق رؤية محلّية تمثل العصر والعزلة الاجتماعية: التي أملتها الحياة الرتيبة في أنساقها المعروفة. ضمن مساراتها المحدودة التي ليس لها أبعاد في آفاق التطور الحضاري الصاعد، ولا رؤية واضحة نحو المستقبل الواعد.

كانت طفولتنا هادئة الحركة. روتينية المسار. لا يتخلّلها نشاط رياضي، ولا يطرأ عليها تحوّل اجتماعي، ولا يلامس أوضاعها تطور تَقَني. بل كانت متمسكة بالجمود المتأصل في النفوس، والمحافظة على الموروث عن الآباء والأجداد، وظلت كذلك رؤية ذلك الجيل مستمسكة بالماضي ومصطلحاته. في

إصرار عجيب على التقيد بطابعه البطيء التطور، وحياته الرتيبة المسار، والجنوح إلى الالتزام بنسق حياة يسودها الركود. متقيدة بنهج واحد لا يتغيّر ولا يتبدل: تتشابه فيها جوانب الحركة ومتطلبات العيش. كما يشمل ذلك الحياة في أنماطها المختلفة: يتماثل فيها الصباح مع المساء، وتضيق الفوارق بين الليل والنهار، فيتساوى اليوم في حركته بين صباحه ومسائه، ولا توجد فوارق كبيرة بين هدوء الليل وحركة النهار. حيث لا تبدو فروق واضحة في اليوم الواحد بين الصباح والمساء، فلا توجد فواصل كبيرة بين هدوء الليل وصخب النهار. كما هو واقع الحال في هذا العصر فلا سيارات يقتنيها الأفراد، ولا طائرات تحل محلّ الإِبل في المواصلات، ولا شيء مما حملته التقنية الحديثة وطفرة الحضارة المتقدمة، وإنما هي مسيرة ذات وتيرة واحدة وتصرفات جماعية متماثلة. تحتفظ في إيقاعها بعبق الماضي وتقاليد الأسلاف الماضين، وتلتزم في ممارساتها بالحفاظ على نهجها الذي رسمه الأجداد وسار عليه الآباء بعدهم، فصار عُرفاً واجب الاتّباع، وقاعدة يلتزم بها الخلف عن السلف، ويورِّثها الآباء لمن بعدهم من الأبناء.

لم تكن المدنّية قد دخلت البلاد. كما هو وضعنا الراهن الذي نعايشــه ونعيشــه، وإنما كانت الحياة في حقيقة واقعها لا تتوافر فيها حركة الانطلاق، وإنما هي ركود تام وجمود مســتمر، ومســار الحياة نمط واحد لا يتحوّل ولا يتبدل، وكذلك تتشابه الطقوس والبيئات بحكم الرتابة البيئية والركود الاجتماعي.



# عالم الأسرة

وحينما نفتح صفحة أخرى في عالم الأسـرة نجد التكاتف التـام والتئام شـمل الأسـرة. حتى إنـه ليقيم في البيـت الواحد أكثـر من أسـرة واحـدة، فنجـد أن مجموعة من الإخوة ينشـؤون في بيت واحد ويكبرون ويعملون ويتزوجون في البيت نفسـه، ولا يتفرقـون إلاّ بعدمـا يكثر الأولاد، ويبلغون سـن الـزواج، ويصبح لهـم أولاد وربمـا أحفـاد. علـى خـلاف مـا هـو حاصـل الآن كما هـو مشـهود من خـروج الولد من البيـت فور زواجـه، فقد أصبح استقلاله ببيت بمفرده مرتبطاً بالزواج، على خلاف المألوف فيما سـبق. بل إن بقاءه مع والديه من العوائق في كثير من الزيجات، فأول الشـروط لأهل الزوجة اسـتقلاله عن والديه بسكن يخصه وحده هو وزوجته، ولا شك أن للتحولات الاجتماعية والتأثيرات الحضارية تأثيراً كبيراً في هذا المسلك الاجتماعي المعاصر.

كما انسحب ذلك التأثير والتأثّر على كثير من أنماط الحياة وسلوكياتها، فنرى برود العواطف وتباعد اللقاءات بين أفراد الأسرة الواحدة، أي بين الأصول والفروع، حيث نجد الابن منشغلاً بأسرته الصغيرة عن والديه وعن صلته بهما، وكأنما نسي حبهما له وحَدْبهما عليه، وشقاءهما من أجل إسعاده وابتغاء راحته، وتعليق آمالهما عليه في صغره. حتى إذا كَبُر واستقل عنهما: نسي دورهما العظيم في تربيته، وفناءهما في حبه، وحرصهما على هنائه ودوام سعادته.



كانت دعائم الأسرة فيما سلف تقوم على ركائز متينة وروابط وثيقة من امتزاج العواطف وتبادل المشاعر، وتقارب الآراء واتحاد التوجهات، كما ظل للوالدين دورهما الرئيس في التوجيه، وموقفهما المهم في هرم الأسرة والريادة في البيت، والقدوة في السلوك. إلى جانب ما يسود أعضاءها من الاحترام المتبادل وتوقير الصغير للكبير وعطف الكبير على الصغير، وقد ظلت حال الأسرة كذلك عبر أجيال متعاقبة. حتى أطلّت علينا المدنية المعاصرة فحملت إلينا معها مفاهيم جديدة وتطورات حديثة: انصهرت فيها السلوكيات الأصيلة والأعراف المحمودة

لتلتقي بسلوكيات مغايرة، تقلل من أهمية ترابط الأسرة وتدعو إلى الخروج عما هو مألوف في النظام الأسري - قبل التطور الحضاري - إلى سلوكيات وافدة مصدرها الغرب المتفوق.

ومن هنا اختلّت المعايير التي كانت سائدة من قبل، وتراخت الصلات التي كانت معروفة فيما مضى، وذلك كله انسياقاً مع التيار الحضاري الذي تفرّد بالصدارة وشقّ طريقه دون مقاومة، فكان ما كان نعرفه في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، مما قلب معادلة الأسرة وفرّغها من محتواها، وأفقدها مضمونها الذي عاشت به أجيالاً متتالية.

يولد الطفل، وينمو في حضانة أسرته الصغيرة بين والديه اللذين يكون مناط اهتمامهما وموضع رعايتهما. يسهران على راحته، ويكدحان من أجله، ويتأثّران بمتاعبه، ويستجيبان لرغباته، ويعيشان على حبه، ويتفقان على العمل لما يحقق سعادته، فتغمرهما السعادة بوجوده، فيبتهجان لابتهاجه ويحزنان لحزنه، ويتألّمان كل الألم لما قد يصيبه من مرض أو ما يعتريه من أي طارئ يعكّر مزاجه، ولذا فإنهما يتسابقان لتلبية مطالبه وتحقيق ما يرضيه، فهو موضع عنايتهما، حتى بعدما

يكبر ويتزوج. حيث تظل الصلة قائمة بين الأصل والفرع على مستوى الأمومة والأبّوة من جانب، والبنوّة من جانب آخر، ولا تكاد هذه الرابطة تنقطع مدى حياة كل من الوالدين والأولاد. كما هو الواقع الملموس في أوائل عصرنا الذي نحياه والذي عايشناه: على خلاف ماحدث في الآونة الأخيرة، فقد تحول المسار وانقلبت الأوضاع، فلم تعد الروابط الأسرية كما كانت كسابق عهدها في الماضي القريب، وإنما تفككت عُراها مع صدمة تيّار الحداثة التي بشّر بها الغرب وصدّرها إلينا، وساندها في ذلك تقليد المغلوب للغالب، ومتابعة المتأخر للمتقدم.



# التكوين الأسري

للتكوين الأسري أهمية في بناء الأسرة وتعاون أفرادها وتكاتفهم وامتداد الصلات بينهم، بحيث لا يغيرها الاستقلال في بيوت غير البيوت التي نشؤوا فيها، وإنما تظل الصلات القوية مرتبطة بالأصول على نسق واحد لا تتأثر بزواج ولا بإنجاب أولاد. هذا هو مثال الأسرة في حياة الأجيال السابقة على خلاف ما عليه الحال في جيلنا المعاصر الذي استطاعت الحضارة أن تُحوّل من اتجاهاته، وأن تُغيّر من سِماته، فتتراخى العلاقات بين الوالدين والأولاد، وينشغل الأولاد عن الوالدين، وتصبح الزيارات محدودة والاتصالات معدودة. حتى تُختزل في المناسبات المتباعدة والظروف القاهرة، وهذا التوّجه الطارئ على نظام الأسرة عندنا: نتيجة طبيعية للانفتاح الواسع على الغرب ومدنياته وأنماط سلوكياته، وتأثيره في مجتمعاتنا الحديثة وتأثّرها مِن خلال التواصل الدائم بالمجتمعات الغربية، والأخذ

عنها والإعجاب بها، وقد ترتب على ذلك السير على منوال تلك المجتمعات الغربية. كما هو حال متابعة الضعيف للقوي ومسايرة الفقير للغني.

هـذه صورة مجتمعنا في تركيبتـه الحالية: امتزاج بالعادات الوافـدة والتكيـف مع الطقـوس الغربية اللامعـة، وانغماس في ممارسـات الغربيين، وذلك يـؤدي إلى بوادر انفصال عن الروابط القديمة التي ورثناها عن أسـلافنا، وتكّونت من خلالها علاقاتنا بمـا يمثل اندماجاً تاماً في التأقلم مع أسـاليب الحياة الجديدة والحضـارة القائمـة، فكيـف يكـون تحديـد موقفنا مع هـذا المدّ الحضاري المتدافع، وامتداده الواسع وانتشاره الشامل؟ لا بد من محاولة التكيف التدريجي مع التيارات الوافدة، بحيث لا تطغى علـى صورتنـا الطبيعيـة المميّزة لنا، ولا تحجـب روحنا الأصيلة التـي نعتـز بها، ولا تجور على مواريثنا العربية الإسـلامية التي عاشـت أمتنـا في ظلها قرونـاً متطاولـة، ولا تزال هـذه المواريث تمثـل رافـداً مهماً في تكويـن حياتنا الحاضرة كما كانت أساسـاً في حياة أسلافنا، فلسنا أمة بلا ماضٍ كبعض الأمم التي ظهرت على سطح الدنيا في القرون الأخيرة.

لا يربط بين أفراد مجتمعاتها نسب، ولا تركن إلى ماضٍ عريق، وإنما يتألف سكانها من أقطار شتى. ذلك أنهم أفراد وافدون تحت ظروف معيّنة من بلدان متعددة، نزحوا إلى قارة حديثة اضطرتهم مقتضيات العيش لبنائها، ودفعتهم الحاجة لتحديثها بقصد التفوق على البلدان التي هاجروا منها، فكانت الولايات المتحدة الأمريكية التي تحولت بجهودها الدائبة إلى أمريكا العظمى.

كانت طفولة جيلنا - جيل الوسط - بين عهد الأجداد السالفين والآباء الذين عاصرناهم نحن الذين نحيا عصرين متباينين: عصر يمثل الركود قبل بزوغ نجم الحضارة التي نتفيأ ظلالها، ونعيش رفاهيتها، ونتحمل تبعاتها، وما تحمله من متناقضات بين مدّ وجزر، ورفاهية تبدو فيها الطيبات من مُتع الدنيا، ومن توافر وسائل كثيرة من راحة ونفع للإنسان، وفي الجانب الآخر يتخلل هذه الحياة الهانئة المريحة منغصات ومتاعب نفسية وذاتية هي نتيجة طبيعية للآلة الحضارية الوافدة التي حملت معها رفاهية المدنيّة وتبعاتها، وكذلك تتبدل الأحوال بتبدل العهود، وتعاقب الأزمنة، وتتابع الأعوام.

# تباين المفاهيم بين الأجيال

لقد كانت طفولتنا انعكاساً للحالة الاجتماعية التي يحياها جيلنا الذي بدأ أفراده في الانحسار من دنيانا. بحكم واقع الحياة وتوالي العصور وتنامي الأجيال. كما أراد الله تبارك وتعالى لخلقه: يموت والد ويولد مولود، ومن خلال هذا التتابع بين جيل وآخر، كما هو واقع الظروف الزمانية: يكون لكل عصر جيل يعايشه ونمط حياة يعيشها، وإذا بدأ الأفول لجيل من الأجيال حسب سنّة الله في الكون، فإن من مقتضى هذا الواقع الذي يفرض نفسه: أن يلتفت الفرد منا إلى خالقه -عز وجل-، وإلى ما خلّف وراءه، من أعوام سلفت مع انحسار جيل السلف، وحضور جيل الخلف.

ونحن الجيل الذي أدرك عهد الآباء وبعض الأجداد: يحسن بنا استعادة ذكريات كثيرة: منها الذي يحمل في سياقه

ملامح مشرقة من أضواء الماضي ومنها ما انطَبع في الذهن من تصورات ممارسات ساذجة تتمثل فيها روح الطيبة والبساطة، ومنها القاسي المرير الذي تتجسد فيه المعاناة لشظف العيش وصعوبة الحياة، ومنها ما بين ذلك مما قد يحمل الأسى ويَقنِع المرء بما قُدّر له، وذلك كله يخضع لظروف الزمان الذي مضى وطبيعة العيش فيه، ونوع التكيّف مع الحالات والوقائع التي كان يعايشها معاصرو الجيل الذي سلف، ونحن من بقايا جيل عاش متكيفاً مع واقعه. قد ألِف الخشونة، وتعوّد مواجهة تكاليف الحياة وصعوبة العيش، كما أنه تكيف كذلك مع أحداث الزمان وطوارئ الأحداث.

لا شك في أن عصرنا الحالي مختلف عن العصر السابق: في كثير من شؤونه وشجونه، وفي مظهره ومخبره، وفي عاداته وتقاليده، وفي أوضاعه الاجتماعية، وفي حياته الحالية عن كل المظاهر الحياتيّة، والأنساق المألوفة لدى الأسلاف: كما عايشناها حقبة زمنية في ظلال تقاليد صارمة وعادات رجولية أشدّ صرامة وأكثر إيغالاً في المحافظة. مما تصعب معه المقارنة بين جيل السلف وجيل الخلف، فقد كانت نشأتنا تحت سُلطة

تُحاسِب على الحركة العابرة، والخطأ غير المقصود، والضحكة دون مبرر في نظر هذه السلطة التي لا ترى الابتسامة في حضور كبار السن؛ لأن هذا يدل على عدم التوقير، ويجرح الإحساس المطلوب معه التوقير والتقدير، والصرامة هنا لا تقتصر على توكيد المحافظة على الشعائر الدينّية والالتزام الدائم بها فحسب، وإنما تمتدّ إلى وجوب التقيد بالأعراف المتبعة في العادات والتقاليد.

إلى جانب الشعائر الدينية التي لا شك أنها ليست موضوع مناقشة ولا محل تساؤل، وإنما من واجب كل فرد بلغ سن الرشد أن يتقيد بأدائها في أوقاتها، وحيث تقام، فلا عذر لجار المسجد ألا يصلي في المسجد، لدرجة أن المؤذن يقوم فور أداء صلاة الفجر بالنداء على أفراد الجماعة كل فرد باسمه، والذي يتغيب يُحاسب ويكون موضع مساءلة؟.

وتندرج تحت هذه الصرامة الدينية التقاليد العادية والسلوكيات الاجتماعية، فكل شيء في نظر الجيل السابق محكوم بضوابط صارمة تُمليها البيئة الجافة، وتحتمها النظرة السائدة والعُرْف المألوف، ولذا نجد التربية القاسية التي تعتمد

على ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً، وتُعاملهم بغلظة شديدة وجفاء مصطنع، ويسود هذا الجو المتوتر بين الآباء والأبناء إلى أن يستكمل الأبناء رجولتهم، وإن كان يستتر وراء هذه الشدّة المتكلّفه: عواطف جياشة تفيض بالحب البالغ والحنان الفطري والرعاية المطلوبة، وإن كانت هذه الممارسات المظهرية للتربية السائدة في الجيل السابق: تُخفي وراءها النزعة العاطفية التي لا يدرك الأولاد أهميتها إلا بعد أن يبلغوا مبلغ الكبار، ويحلّوا محل الآباء في المكانة والنفوذ، وهنا يتسلّم الجيل الحديث راية السلطة، فيتحوّل الأمر والنهي إليه، بحكم أنه تجاوز مرحلة الوصاية عليه إلى الوصايه منه، ويحل الخلف محل السلف في الأمر والنهي، ويتوارث أبناء اليوم سلطة آباء الأمس، ولكنْ مع اختلاف وسائل التربية وتنوّع السلوك، وذلك بحلول اللطف محل العنف، والاهتمام بالعلم الذي توسعت مصادره وتباينت مدارسه، وهكذا يتوارث كل جيل ما سبقه من أجيال.

وقد عانينا نحن الذين عايشنا هذا الجيل من صلف التربية وفرض الإرادة، والتعسف في استخدام السلطة الأبوية نحو الأبناء. حتى لتكاد عُرَى الصِّلات بين الآباء والبنين تنقطع لكثرة ما يشدها الآباء، ويشتدون في ممارستها، وذلك نتيجة

طبيعيــة للاعتســاف في التأديــب القائم علــى الترهيب، لا على الرفق وحســن التعامل، فلقد ترسـب في أعمـاق الآباء ما صنعه بهـم الأجداد، فكانت التربية القاسـية التـي تعتمد على الضرب والعبـوس وزرع الخوف فـي نفوس الأولاد، وتخويفهـم دائماً من مغبّـة العقـاب على أي حدث، مهما كان تافهـاً وصغيراً، ومن هنا نشـأت فجوة واسـعة بين الأجـداد والأبناء الذيـن أصبحوا فيما بعد آباء، وسـلفنا رحمهم الله تعالى يشـتطّون في تربيتهم حباً لأبنائهـم؛ حرصـاً على سـلامة مسـلكهم، وإيغالاً فـي الاهتمام بمسـتقبلهم، ولكـن كل شـيء يزيد عن حـدّه ينقلـب إلى ضده. حتى لو كان ذلك بدافع الحب الخالص، فالمثل يقول: ومن الحب ما قتل.



# التعسف في التربية

وفي ظل تلك السلطة الأبوية المتعسفة: كانت العواطف مخبوءة لا تبدو في ذاتها واضحةً إلاّ في مرحلة الطفولة المبكرة، وفي ظروف خاصة كالمرض والسفر مع أن المفهوم بين الأبوّة والبنوّة: تختزنه عواطف تفيض بالحب العميق والتضحية الصادقة من أجل هذا الحب، وفي ضوء هذا الواقع الذي لا يمكن إغفاله فضلاً عن إنكاره: يأتي مثل هذا التساؤل؟ لماذا مع كل ذلك الحب الأبوي الأكيد تبدو على السطح ممارسات تأديبيّة كأنما تُشعر الابن بأن والده لا يحبه لقسوة التأديب أو الإمعان فيه؟! والجواب على هذا التساؤل الذي تفرضه طبيعة الموقف: يكمن في توارث هذه العادات، حتى أصبحتْ نسقاً معروفاً بين الأُسر، وصفةَ ملازمة للوالدين، ولعل أهمّ ما يجب الاهتمام به التربية الدينية التي ينشأ عليها الأولاد بين: (بنين وبنات).

وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ فينَا

علَى مـا كــانَ عـوَّدَه أبـُـوه

والتربية الدينية بالذات واجب حتمي على كل أسرة مسلمة يقوم بها الوالدان: (الأب والأم). فهي واجبة على الكبير في الأسرة نحو الصغير فيها، كما أنها في عمومها واجب إسلامي، ولكّن الانطباع السائد حينذاك يتمثل في استخدام القوة من الكبير نحو الصغير تحت اسم التربية الصالحة، وبهذا المسلك وجدنا الإفراط في التشدد يأتي بنتيجة عكسية تتحول إلى التفريط، فمثلاً الأمر بالصلاة للصغار واجب، ولكن دون عنف ينتج عنه كره الصغير لهذا الواجب الذي تقترن فيه الطاعة بالشدّة، والدعوة بالقسوة على غير هدىً من الإسلام.

وفي هذا المضمون الذي سلف أذكر موقفاً تربوياً يمثل شطط التربية الدينية من بعض الجهلاء بالدين، فقد كان السائد في بداية جيلنا الذي تصرمت أعوامه أو كادت: كان التشدد والتعنيف في الأمر بالمعروف ينعكس إلى ضدّه ويتحول إلى عقدة نفسية لسوء الممارسة التربوية، ويتمثل ذلك في أن كثيراً من الآباء يصطحبون أطفالهم لصلاة الفجر في الأجواء الشديدة البرودة،

والطقس العاصف، ويفرضون عليهم الصلاة قبل سن التكليف، ومما لا أنساه في هذا الصدد: أننا كنا مجموعة من الأصدقاء نلتقي في صالة أحد الفنادق في مدينة جدة لقاءً دورياً بحكم أواصر الصداقة، نتحدث خلال هذا الاجتماع عَبْرَ مجالات شتَّى، منها ما يتصل بالماضي، وكانت تُقام الصلاة في مصلى ملحق بالفندق يُصلي فيه عمال الفندق، ومخصص له إمام يؤُمُّ المصلين الذين تحضرهم الصلاة، ومنهم ضيوف الفندق، وكثيراً ما أدركتنا صلاة المغرب، فكان أكثرنا يقوم لأداء الصلاة.

وقد لاحظنا أن بعض الحضور يذهب لحال سبيله عندما يسمع الأذان، فلا يصلي معنا، ومن الذين لا يشهدون الصلاة في المسجد رجل كان يجاهر بعدم الصلاة مع الجماعة، وهو كذلك لا يذهب مع الذين يذهبون من الرفاق، وإنما يظل في جلسته حتى نعود إليه في مجلسنا بالصالة، وكأنه غير مسلم لا يعنيه من أمرها شيء، وحين فاتحته في أهمية هذا الركن العظيم وأنه لا يُقبل منه عذر مهما كان بعدم أداء الصلاة لوقتها مع الجماعة، وقلت له مشدداً على هذا الموقف: إنك مسلم نشأتَ في بيئة إسلامية ترى فيها والدك يذهب للصلاة في المسجد،

ووالدتـك تؤديها أمامك في المنزل، وكلٌّ منهما يؤديها في وقتها، وأنـت بحمد الله مسـلم بحكم إسـلامك: لعلك تعـودتَ الصلاة من مرافقتك لوالدك إلى المسجد، فكيف بعدما كبرتَ وصار لك أولاد، وربمـا أحفـاد: تقف بجفـاء إزاء أداء أهم أركان الإسـلام؟! مـع أننـا في طفولتنـا كان الفرد منـا يرافق والده نحو المسـجد لأداء الصـلاة - كمـا هي عـادة الصغار فـي تقليد الكبـار- فكان جوابه: إن سـبب نفوره من الصـلاة نتيجة حتمية لطريقة والده العنيفة لتعويده الصلاة، ولا سيما صلاة الفجر في ليالي الشتاء الشـديدة البرودة، وهو صغير لم يبلغ سـنّ التكليف، وهو بحكم سـنّه الصغير لا يحتمل زمهرير الشـتاء القاسي في ذلك الوقت الذي لا توجد في البلاد كهرباء فضلاً عن وجود تدفئة.

ولكـنّ والـده رحمه الله: كان يتعسـف في اسـتخدام سـلطته الأبويـة، فيوقظـه لصلاة الفجر، ويسـوقه أمامه، فـإذا لم يقمْ من فـوره جاء بماء بارد فسـكبه عليه في فراشـه، وسـحبه مـن رجليه صاغراً إلى المسـجد، وهو مبلل بالمـاء، وأوقفه في صفوف المصلين، وهو من الخوف من والده وبفعل الماء المثلج المسـكوب على جسـمه في قسوة فصل الشتـاء: ترتعد فرائصه من الرعب والألم ويسير إلى المسجد راغماً انصياعاً لأبيه لا أداءً لفريضة أوجبها الله عليه!!

ومما لا ريب فيه أن والده مجتهد في تربيته، ولكنه اجتهاد في غير محله، فقد ترك هذا الصلَفُ التربوي في نفس هذا الطفل شعوراً بالكراهية للمسجد، وعزوفاً عن أداء الصلاة على أي كيفية كانت في المسجد أو في المنزل.

لقد كان إحساسه كأنما يؤدّيها لا للخالق تبارك وتعالى وإنما انسياقاً تحت رهبة والده، ولذلك كان عندما يوقظه والده للصلاة فإنه يؤديها بلا وضوء، ودون مشاركة روحانية في أداء أركانها وواجباتها، وإنما يركع مع الراكعين ويسجد مع الساجدين، دون قراءة ولا تكبير ولا تسبيح: لشعوره أنه يصلي بالإكراه ولذا فإنه يخرج من الصلاة كأنْ لم يدخلها، فليس للصلاة حضور في نفسه ولا رغبة ذاتية روحانية تحيط سلوكه في أدائها، ومن هنا تكوّنت لديه عقدة نفور حيالها، واستمر معه هذا النفور والإعراض عن الصلاة حتى بعد وفاة والده، وعدم ممارسة السلطة التنفيرية ضده التي لم يأمر بها الله -عز وجل- ولا دعا إليها الإسلام الذي يعتقده.

كما تتجسم في ذهنه هذه الصورة الممسوخة لأداء الشعائر الدينية بحكم التعسف في أدائها الذي جسّد في نفسه ذلك

النفـور الذي امتد معه حتى بعد إنجابـه الأولاد، وبعدما أصبح فـي عداد الكهـول، وبعد دعوة هادفة وبحث بصيـر ونقاش هادئ يجـري بإقناع وبصيرة: هدى الله صاحبنـا، فعاد لأداء الصلوات كأي مسلم مطالب بواجب الالتزام بما فرض الله عليه، وبحسن الحِـوار والتلطـف في المناقشـة الهادفة: أزلنا مـن ذهنه أثر تلك الصورة المشوهة نتيجة معاملة والده التعسفية وتربيته القاسية، ولقـد التقيـت به مصادفـة في صلاة التراويح في أحد المسـاجد فـي رمضان، فكان يحرص علـى أداء الفرائض والنوافل في هذا الشهر المبارك، وفي سواه من الشهور.

لقـد عـاش جيلنـا فـي هـذا المحضـن الشـديد القسـوة في الطريقـة التربوية، ولكن على الرغم من هذه القسـوة الظاهرة، فـإنّ الوالـد يتفانى في حـب أولاده، بل قد يؤثرهم على نفسـه. الا أنـه خضوعـاً لمظهـر التربية المألوفة في قامـوس التعامل مع الأولاد والبنـين خاصه، فإنه يُبدي صرامـة في التعامل مع بَنيه اسـتجابة لما اسـتقر عليه العُرف وتوارثه الآبـاء عن الأجداد مِن الصرامـة لزرع الهيبـة في نفوس الأطفال. كما مّـر بنا عن تلك التربيـة التي أوردنـا لمحة من معاملة والـد صديقنا الذي غرس

فـي نفس ابنه الصغيـر كراهية الصلاة نتيجة الأسـلوب العقيم والتربيـة غيـر الرشـيدة، والتي تُؤدي نتائجها إلـى عكس ما كان يريده الوالد من ولده من تعويد ابنه الاسـتقامة وتنشـئته على الصلاة والصلاح.

وذلـك عائـد إلـى تربيـة الجيـل القـديم التـي تختلف في مضمونهـا وفي مؤدّاها وجدواها عن التربية الحديثة في الجيل المعاصر، وكما تطورت وسائل الحياة تطوراً واسعاً شمل كل معالم الحياة، فقد تبع هذا التطور التقني والحضارى: تطور في وسائل التعليـم وفـي جميع النظـم التربوية المعاصرة. كمـا هو مألوف في السـاحة التربوية السالفة التي تبنّاها الأجداد والتي ورّثوها للآباء والأحفاد. حسب التتابع الزمني وتطور كلّ عصر، ولا ريب أن لكل عصر رجاله وطبيعته، ومدى تكيّفه مع الحضارة الوافدة والمدنيّـة الحديثة التـي من مقتضاها أنها تُطوّر ذاتها بأسـاليب جديدة تنسخ مسيرة العادات القديمة.



# التربية السوية

إن مما ينبغي الالتفات إليه في مسيرتنا الحالية: تأصيل حب الدين في نفوس الناشئة، وتكريس هذا الحب بالرفق والأسوة الحسنة والمعاملة الحانية، وعدم المبالغة في تعنيفهم على التقصير في أداء الواجبات سواءً كانت دينية أو دنيوية، وأن نقبل أعذارهم ونقيل عثراتهم، وإذا كان الأقدمون قد بالغوا في التشدد بإصدار الأوامر والتقريع الجارح وتضييق الواجب على سعته: حتى تجاوز ذلك السلطة الأبوية المطلوبة إلى حَدّ التنفير الذي ينتهي بالابن إلى الجموح والجنوح، فإن هذه السلطة تمثل سلبية في التربية وقصوراً في الإدراك. كما تمثل جناية على الأولاد تدفع بهم إلى الخروج عن طاعة الوالدين، والانحراف السلوكي بالانضمام إلى التائهين من الأشرار، ومن هنا فإنه يجب علينا فرض التوازن عَبْر الأسلوب التربوي الرشيد في التعامل بما نريده لأبنائنا: بالتزام التوازن فيما نأمر به وننهى

عنه، دون تعسف في الأمر بالمعروف ولا شطط في النهي عن المنكر، وأن يكون التعامل مع أبنائنا برفق وهدوء ولطف، وبهذا نصل إلى موقف وسط لا يدفع الابن للعقوق والنفور، ولا يُعفيه من أداء ما هو مطلوب دينياً ودراسياً واجتماعياً.

وبهذا الأسلوب الحكيم يتم الوصول إلى موقف وسط بين التشدّد والإهمال وخير الأمور الوسط، ويتم ذلك بحسن التعامل وفق تربية دينية سليمة ومستقيمة. لا شطط فيها يتمثل في العنف، ولا تساهل فيها يُؤدي إلى الإهمال، والتربية الوسطية هي المفتاح المنهجي السليم، والطريقة المثلى، والهدف الأسمى لاستقامة الأولاد، وزرع الثقة في نفوسهم، وتحبيب الواجبات الدينية لديهم. بحيث ينشؤون على ما تعودوه واعتادوه من حسن التربية وسلاسة الطريقة الحسنة. التي يجب أن تكون هي الأداة المثالية للتفاهم المأمول بين الشباب والكهول.

ومع ثبات المقاصد الخيّرة في نفوس الأولاد مع امتداد الزمان، وتطور الظروف، وتجدد التطورات، وتنوع الممارسات: فإنه بذلك يتكوّن جيل يحمل هموم الأمة ومسؤولية الوطن. إذا ما قُدّر لمسيرته أن تسودها الحكمة في التعامل والتربية، وأن

تصاحبها وسائل التشجيع لا التقريع، وألا تكون معالجة الخطأ بخطأ يؤدي إلى خطيئة أشد منه، أو يدفع إلى ما هو أعنف منه ضرراً، وإنما يجب أن يسود حسن التعامل بين الوالدين والأولاد. لصياغة جيل معاصر تتوافر فيه كل مقوّمات الرجولة والصفات المتميزة، دون عُقد نفسية وانحرافات أخلاقية تنتج عن استخدام الصلف والإِعنات في التربية السلوكية.



# اختلاف الأجيال

ومن المستقر واقعياً واجتماعياً: أن كل جيل يخلفه جيل آخر يختلف عنه في الرؤية وفي المسار، وفي طبيعة التكوين التربوي، والنهج السلوكي، والنسق الاجتماعي، والفاصل الزمني في حياة الأجيال يشكّل في ذاته مدارات سلوكية، وأوضاعاً اعتبارية لدى كل جيل، ومن هنا وُجد التفاوت الواضح بين الأجيال المتقدمة والمتأخرة، ونحن نرى في عصرنا الحالي هذا التفاوت الواسع بين ماضٍ وحاضر.

من حيث التطور السريع الذي شمل معظم مجالات الحياة وشمل في مَدّه الجارف الكثير من التوجهات والسلوكيات. كما نرى في المشهد العام قفزات تقدمية كبيرة واسعة الخطوات متعرّجة الطرقات، متباينة المواقف، متماوجة الأصداء، حادّة المفارقات، وعَبْر هذا التناقض بين السابق واللاحق: تستجدّ

مـع كل جيل أنماط مختلفة من وسـائل العيـش وحركة الحياة: متباينة في أوضاعها متضادة في مساراتها.

فـكل جيـل يَفد إلى هذا العالم لا يسـير علـى خُطى الجيل الذي سبقه، وإنما يحاول أن يضع نهجاً جديداً، ومسـاراً مبتكراً لا يلتقي مع مسار سلفه إلا في حدود محدودة وعلى نطاق ضيّق، وأوضح الاختلافات نلمسه في مسيرات الأجيال الأخيرة بعد أن تفجرت العلوم وارتقت الصناعات: وفقاً لمسيرة الحركة التقدمية الحاضرة التـي واكبت الحضارة الغربية المعاصـرة عَبْر التقنيات الفنيـة والتطـورات الحضاريـة، وبهـذا كان اتسـاع الاختلافـات والفـروق بـين الأجيـال، ولا سـيما ما هـو مشـهود وملموس من فوارق عديدة لا مثيل لها بين الأجيال السـالفة، حيث لم تشـهد السـاحة العالمية الفوارق الواضحة والفواصل المتطوره بين جيل مضى والجيل الذي يليه.

فقد كانت التّباينات تبدو في نطاق ضيق: على خلاف ما هو حاصل بين جيلنا والجيل الذي سلف قبلنا، فقد اتسعت المسافات بـين حيـاة جيل سـابق وجيـل لاحق، كما هـو في منظـور واقعنا الذي نعايشه، مما أصبح محل عجب وموضع تعجب!! فإذا كان

الفارق محدوداً بين الأجيال المتتابعة قبلنا: فإنه قد اتسع الفارق في واقعنا المشهود لجيلنا وبين سابقه. كما هو واضح في الواقع الذي نحياه، حيث يشمل دائرة واسعة من التقاليد والأعراف والسلوكيات، إلى جانب تغير كامل وشامل في جميع مناحي الحياة على نحو لم يكن معروفاً بين الأجيال التي مضت، ولا موصولاً بحياة الماضي لأمتنا الإسلامية خاصة. إلا بعد هذا المدّ الحضاري الكاسح، والطفرة التقنية التي لم يكن لها وجود في الماضي، ولم تكن معروفة للأجيال السالفة.



# التربية بين جيلين

وحين نلتفت إلى سالف زماننا عَبْر واقعنا المحسوس، ممثلاً في أفراد جيلنا الذين عايشناهم وعشنا معهم في مستهل أعمارنا: نجد حياتنا في حاضرنا قد نالها الشحوب، حيث شاخت منّا الأجسام، وضعفت الحواس، ونالنا التعب والإرهاق في رحلة الحياة المتقلبة الأجواء والأنواء مع تقلبات الدنيا، ومع هذه التقلبات، فلم نُعلن عجزنا، ولا رفَعنا راية الاستسلام للرضا بالقعود، والناس تَجد في السير نحو الأحسن، والسباق إلى الأفضل، فقد بقَيت أرواحنا تتطلع إلى المزيد من الجُهد، والسير بخطوات واسعة إلى ما هو أسمى وأعلى، وما نيل المطالب بالتمني وإنما القاعدة المعروفة أن: (مَنْ جدّ وجد. ولكل مجتهد نصيب).

لقد كنا في مرحلة الشباب، على الرغم من أننا نعايش المتاعب وتواجهنا المصاعب، ولا نعرف وسائل الرفاه: إلا أننا سعداء بحياتنا على خشونتها وبساطتها وعدم توافر أدوات الراحة التي افتقدناها في شبابنا، وعرفناها في شيخوختنا، كما عرفها أبناؤنا وأحفادنا وأسباطنا، فلم يكن جيلنا معايشاً لهذه الحياة المسترخية التي تتوافر بها كل مقوّمات الراحة والهناء، كما هو واقع الحال في الحاضر، ولا عرفنا الطفرة الحضارية في باكورة حياتنا كما أدركناها في حاضرنا.

فقد كانت بداية حياتنا محفوفة بشظف العيش وقسوة الظروف.. محاطة بالصرامة والجدّية في جميع تصرفاتنا، ومحسوبة علينا تحركاتنا؛ ذلك أن تربيتنا كانت تجنح إلى الشدة والتجهم الدائم، حتى لا نكاد نشعر بمدى حب الوالدين لأنهما لا يُظهران الحب الذي تبطنه مشاعرهما وتنطوي عليه جوانحهما، ولا يعبّران عنه بلفتة أو همسة، وإن كان من المؤكد أن حبهما راسخ في طوايا النفس وأعماق الروح، فالجيل السابق كانت نظرته التربوية محصورة في أسلوب العقاب، والترهيب واستخدام الشدة.. ومن المتعارف عليه أن استعمال الخشونة

في ذلك الجيل هي: مدار التربية السليمة في المفهوم السائد حينذاك، والمألوف في الممارسة التربوية في جيلنا والأجيال السابقة.

وفي ظل هذه الصورة التربوية: نشأنا على هذا المنوال الذي يحمل في طابعه وأسلوبه: التكتم في التعبير عن حب الأولاد، وإن بدا ذلك في كثير من لفتات الأم بصفة خاصة، إلا أنه شحيح جدًا بالنسبة لموقف الأب، فكأن الصورة السلوكية ستهتز لو أن الوالد تبسط مع أولاده وكشف عن مبلغ حبه لهم، وهذا النمط من السلوك التربوي هو سلوك تربوي يتوارثه الأجيال: كل جيل لاحق يرثه عن الجيل السابق، وذلك يعكس هاجس الأبوّة في أن إعلان الحب، والمجاهرة به سينتج عنه ميوعة للأولاد وخروج عن طاعة الوالدين؛ ولذا فقد كان انعكاس هذه النظرة من الآباء السالفين على جيلنا أن تبدل الوضع: فأصبحنا نُعلن بأرقى عواطفنا حبنا لأولادنا مبدين -دون تحفظ- مشاعرنا الصادقة ولهفتنا نحوهم والاهتمام بمستقبلهم، ونبذل كل جهودنا ونسخّر طاقاتنا الحسية والمعنوية والمادية في سبيلهم ومن

أجلهـم، ونسـعى جاهدين للارتفاع بمسـتواهم إلى معارج الرقي والتقـدم، كما نتمنى من مجامع قلوبنا أن يكونوا خيرًا منا على كافة الأصعدة وجميع المستويات.

وأنا فرد من جيل مخضرم ولد في جيل متشـدد في تربيته، وعِشـتُ فـي أكنـاف عصر مُرَفّـه ينشـد لأولاده الرفاهيـة التامة والسـعادة الدائمـة، كمـا أنـي مـن الذيـن يُؤثـرون أولادهم على أنفسـهم، مع دعواتي الصادقة الملحّة لوالـديَّ بالرحمة والمغفرة والرضوان، إلى جانب الصدقة عنهما في كل مناسـبة، والاعتمار عنهما في مواسم العطاء الإلهي، وذلك لإدراكي لحبهما العميق لنا وحدبهما علينا، وإن حاولا عدم إبراز الحب ظاهرًا، ولكن هذا الحب يتجلى في مواقف عديدة، وفي مناسبات متنوعة ومتعددة، لاسيما بعد كبرهما، فقد كانت مشاعرهما معلنة لأولادهما بكل وضوح وعلى امتداد الزمان.

كل جيل ينظر إلى سلفه نظرة تقدير وتبجيل لهذا السلف، يحمل هذه النظرة العاطفية بين حنايا نفسـه، ويحيطها بكثير

من الإعزاز والإجلال، وسلفنا السابقون لنا -نحن الجيل المعاصر- كانت لهم منهجيتهم في طرق التربية الخاصة والتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد، ولذا فإنهم يُعنون بالتمسك بهذه التقاليد المرعية، إلى جانب الاعتماد على الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال من قَبل ومِنْ بَعْد.

وأنا بحكم أني من جيل مخضرم -كما أسلفت- تتمثل نظرتي نحو أولادي والتعامل معهم: في نظرة واقعية مستمدة من روح العدالة والمساواة والعواطف الإنسانية الصادقة، لا أُفرّق بين البنت والابن في العواطف والحقوق، فالأولاد: (بنون وبنات) كلهم تشملهم عواطفي الصادقة، موزعة بينهم بالتساوي في النظرة وفي العاطفة، وفي الحب وفي العطاء، فمثلاً لديّ ابنة واحد وثلاثة أبناء، لا أُفرق بينهم، فكُلهم عندي سواء في الحب والمكانة، ولكلٍ منهم متسع في القلب، وموضع في الوجدان، وهذا ما يعرفه عني أولادي، وأعتقد أن جيلنا الحالي يتعامل كلٌ فرد مع أولاده على هذا المنوال وفي هذا المسار.

# الاسم المستعار

كنت في صغري خجولاً جدًّا، فقد نشأت بعيداً عن صخب الاجتماعات العامة، وبعيداً كذلك عن الاندماج في المجتمعات الكثيفة. حيث كانت علاقاتي الأسرية وصلاتي الاجتماعية مقصورة على أبناء الأعمام وأبناء الأخوال: منهم من هو أكبر سناً مني، ومنهم مَن هو في مثل سنّي، ومنهم من هو دون ذلك، وكنت أنا وشقيقي محمد نمتزج بهذا العدد المحدود من أبناء الأقارب، إلى جانب بعض أبناء الجيران، وبعض زملاء الدراسة.

وعندما كبرتُ وانفتحت أمامي مجالات الثقافة والكتابة في الصحافة: كان هاجسي أن أكتب بحرّية تامة حرية لا قيود عليها، ومنها الاسم الذي اخترته لأكتب من خلاله المقالات، وهو اسم له دلالة في حقيقته ويحمل الاسم الثلاثي للكاتب الذي يتوارى خلفه، فكان الاختيار لاسم: (مسلم بن عبدالله المسلم) وعُرِفت

بهذا الاسم، وهو اسم مكتمل العناصر للاسم الثلاثي، واشتقاقه من واقع حقيقي، فأنا بحمد الله مسلم، ووالدي اسمه عبدالله، واللّقب: المسلم مشتق من هُويتي الإسلامية، وفي هذا المضمار، فهو اسم مكتمل العناصر التي توحي بمصداقيته؛ لأن العاده في استعمال الاسم المستعار أن يكون اسماً واحداً، وفي أغلب الأحوال يكون له دلالة ارتباطه باسم مشهور في الأدب العربي أو معروف في الثقافة العامة، وعدد من أدبائنا الذين يمثلون الرعيل الأول في هذه البلاد كانوا في بداية حياتهم الأدبية وفي بعض مقالاتهم: يكتبون تحت أسماء مستعارة، يختارونها من أسلافهم الأدباء السابقين، أو ينتقونها من أسماء الأعلام البارزين، ولا أدري كيف خَطر بذهني هذا الاسم (مسلم) لأتَوارَى خلفه أربعة عشر عاماً.

وكان بودّي الاستمرار في الكتابة بهذا الاسم، حتى إني أصدرتُ به كتاباً في سلسلة: (كتاب الرياض) بعنوان: (مأزق القيم) وهو العدد الثالث عشر من بدء السنة الثانية لإصدار هذه السلسلة وكان صدوره في يناير ١٩٩٥م، وكتب مقدمته الصديق العزيز الأستاذ سعد الحميدين مدير تحرير صحيفة الرياض والمشرف

على هذه السلسلة، ومما جاء في تقديمه للكتاب ما نصه: «وتأتي تلك الوقفات اليوم في هذا الكتاب: (مأزق القيم) برهاناً على تأكيد الموقف، وبعد تهديد تعرضت له الكويت الشقيقة قبل شهور، ومع القيم الفكرية التي تحملها تلك الوقفات، وما يكتبه هذا القلم منذ سنوات، ومع ما حصل من تأييد ومداخلات لما كتب: ظل الرجل مسدلاً الستار على اسمه الحقيقي، مقتنعاً بأن لاعبرة إلاّ بالعمل، فمتى احتُرِم العمل أدرك صاحبه مقداره، ومسلم بن عبدالله المسلم الذي استمر في كتابة مقال أسبوعي كل يوم سبت منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً، ومايزال لم يتخلّف أو يَغبْ عن يومه المحدد: يجسد الاحترام لذاته وللآخر، وعدم إعلانه لاسمه يُعبّر عن زهده في حب المظاهر، وإيمانه بالعمل المثمر الذي يستمر عطاؤه».

كما كتب أخي العزيز الأستاذ سعد الحميدين في صحيفة المدينه بتاريخ ١٤١٢/١٢/١٨ في باب ثلاث رسائل، وهو باب يتناوب على كتابته بعض الكتّاب، وكانت الرسالة الأولى موجهة إلي باسم مسلم، والثانية موجّهة إلى الأخ العزيز الأستاذ عبدالله القرعاوي رحمه الله تعالى، والثالثة موجهة إلى الأخ العزيز الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله تعالى، ومع أنني لا أوافق

أخي سعد الحميدين على هذا الإطراء إلا أن ما كتبه لا يخصني وحدي، وإنما يمثل حقبة زمنية يجب إثباتها بإيجابيّاتها وسلبياتها، ومن هنا جاء نشر الرسالة كالآتي: «الأستاذ مسلم ابن عبدالله المسلم مَنْ تواضع لله رفعه. أشهد لله أن ذلك ينطبع، وينطبق عليك، وذلك يعرفه مَنْ تعامل معك شخصياً. أما الآخر فقد عرف ذلك بواسطة سطورك التي تحمل نصاعة الأسلوب، ومتانة اللغة، ووضوح الهدف، وبروز الفكرة، وكل هذه الأشياء تكون في مواضيع متوالية تشبه فصول الكتاب، حيث إن بعض المواضيع يستغرق التفكير. حقيقة إنك تمثل المثقف النموذج الذي نحن بحاجة إليه. ليت البعض، وهم كثيرون يقتدون بك قولاً وعملاً.. ليت.. ليت!

أرجو صادقاً أن تضمّ هذه الكتابات في إصدارات حسب مواضيعها، فطابع معظمها إنْ لم أقل كلها لا يتأثر بِمرور الزمن، وذلك أسوة بالأفذاذ من أدباء العرب. عسى أن يتحقق الرجاء».

وفي هذا الإطار لابدّ أن أُعطي القارئ مزيداً من جلاء الغموض عن هذا الاسم الذي لازمني أربعة عشر عاماً، حتى صرت أُعرف به كاسم حقيقي، وإن كان يعرف بعض القراء الاسم

الصحيح، وتفسير ذلك أننى بصفتي فرداً في مجتمع له ثقافته وتقاليده وأعرافه التي تحكم نظامه وتمثّل شخصيته، وبحكم التمازج الثقافي بين بعض فئاته، والتناسق الاجتماعي بين كثير من أفراده، فإنه يحدث من الصفاء والشفافية والتجانس بين بعض الأفراد: ما يوثّق الصلة المتينة ويؤكدها، فنرى من مظاهر ذلك أن يقوم مؤلفان بتأليف كتاب واحد يشتركان في اختيار مادته، ويتفقان على أن يكتب كل منهما قسماً من هذا الكتاب بحسب اختصاصه: إذا كانت تجمعهما عوامل مشتركة في الرؤية، وفي التوجه الفكري والمسار الثقافي، والمسلك العام.

وللتدليل على واقعية هذا المفهوم، فإنه من الممكن إذا لم يجد الكاتب مَن يشاركه الفكرة، فإنه يبتكر شخصية يتخذها رفيق درب، وشريك مصير وزميل حياة: يُفضي إلى هذا الرفيق بسريرة نفسه، ويبثه شجونه وشؤونه، ويكتب باسمه بحكم أنه ينوب عنه في التعبير عن مشاعره والإفصاح عما يدور بخلده من أفكار، وما يستدعيه الواقع من كتابات بحسب الأجواء ومقتضيات الحال، وهذا ما حدث فكتبت باسم مسلم؛ لأنه رافقني منذ مرحلة الطفولة، ومرابع الصِّبا، ومراتع الشباب، ومراحل الكهولة.

أمـا بعد بلـوغ مرحلة الشـيخوخة فقد عاد الاسـم الأصيل ليحـل محل الاسـم البديل، وكنت قبل اسـترداد الاسـم الأصيل أمثّلـه فيما أتحدث به، وأنوب عنه فيمـا أكتبه، وفي هذا التمازج توحّـدت الأفـكار، والتقت التوجهات، فكنتُ كأنمـا أنطق بصوته، وأكتـب باسـمه وبذلك اتّحدت خُطانا، فكأني هـو، وكأنّه أنا، وقد انتهت مسـيرتنا بالإفصاح عن الحقيقة، والعودة للاسم المعروف بدلاً من الاسم المألوف.

وبفضـل اللـه تبـارك وتعالـى، ثـم باسـتمرار المداومـة على متابعة القـراءة الجادة، وملاحقة ما يصدر من مؤلفات ودوريات ثقافية: كنت أواصل النشر بحسب الاستطاعة، وأذكر أني أول ما بـدأت الكتابة بتوقيع قارئ وغالباً كنتُ أبعث برسـائل إلى رئيس تحريـر صحيفـة (البـلاد) فـي ذلك العهـد تتضمـن ملاحظات وانتقادات لبعض ما يُكتب ولم أفصح عن اسمي إلا بعد أن أدرك بعض المتابعين مصدر إرسال تلك الملاحظات، وكنتُ أقيم في مكة شـرّفها اللـه، ومعلوم أن سـكانها آنذاك يتمثل فـي عدد محدود، وتضيق الدائرة حين يتصل الوضع بالشأن الثقافي.

وعندما رأيت أني قادر على الكتابة المبكرة في الصحافة تقدمتُ إلى رئيس تحرير البلاد الأستاذ عبدالله عريف رحمه الله فطلب مني أن أعمل مصححاً في الصحيفة، فكان ذلك، ومعلوم أنها أبرز صحيفة تصدر في ذلك الوقت، وكان صدورها أسبوعياً، وكانت تجربة ناجحة وحافزاً لي على مواصلة القراءة، والاجتهاد في توسيع مداركي بكثرة المطالعة في شتى الوسائل الثقافيّة المتاحة إذْ ذاك.

وعندما أثبتُّ وجودي على قدر استطاعتى وجُهدي في ميدان الصحافة على محدوديته في تلك الحقبة الزمنية: بدأت أفكّر في معاودة الدراسة من جديد لاستكمال الوجاهة التعليمية بالحصول على مؤهل المعهد العلمي السعودي، وهو يمثل المرحلة النهائية الثانوية، وقد فتح لي هذا المؤهل مجال الالتحاق بكلية الآداب بجامعة القاهرة التي تخرجت فيها، وكانت الدراسة في مصر آنذاك غاية في ذاتها، والحصول على المؤهل الجامعي وسام لامع يُقدِّم صاحبه على أنه صاحب حَظْوة، وسيكون له مستقبل باسم.

وقد التحقتُ بالجامعة تحدياً لبعض الزملاء من الذين عادوا بمؤهلاتهم وهم يُطاولون السماء افتخاراً بِتلك المؤهلات.

يفتخرون بها على مَنْ سواهم من البشر، وحين اقتحمتُ لجّة الدراسة بجامعة القاهرة، وتأهلتُ فيها بالحصول على الشهادة الجامعِية لم أَعُدْ بعد ذلك أهتمّ بالمؤهل بعد أن حصلتُ عليه، ولذا فلم أعبأ بأخذ الشهادة الجامعية. وهنا يحسن أن أدوّن ما طرحته عليّ مجلة ( المعرفة ) الشهرية في عددها الصادر برقم (٦٩) لشهر ذي الحجة لعام ١٤٢١هـ كالآتي نصاً:

حياة كل واحد منا جملة من النجاحات والإخفاقات، وأجمل شيء أن يترك الواحد منا الحديث عن نفسه، ويدع الآخرين يتحدثون عن إنجازاته ونجاحاته. حسناً، وعن ماذا هو يتحدث إذاً، عن إخفاقاته؟ ربما! الفشل ليس عيباً، فهو وقود الانتصارات.

«المعرفة» تريد من هذا الباب أن تقول للشباب من الجيل الجديد: إنه ليس هناك إنسان لم يذق طعم الفشل في حياته، نريد أن نقول: لهم إن الجيل الذي سبقهم هو جيل إنساني يخطيء ويصيب، ينجح ويفشل، ثم ينجح مع الإصرار.

ف: فرصة تمنحك إياها - المعرفة - لتسجيل اعترافاتك.

ش: شهادة.

ل: ليس عيباً أن تفشل.. ولكن العيب أن تزعم أنك لم تفشل في حياتك!

وضيف هذا العدد هو: الأستاذ عبدالعزيز بن عبدالله السالم.

الحياة سارت بي في الاتجاه المعاكس، وفيما يلي تبدأ الإجابة عما طرحته عليّ المعرفة:

بداية هل يمكن الاتفاق على تعريف محدد للفشل والنجاح؟ وما هو المفهوم الذي يحدد كلاً منهما؟ ثم ما هو المقياس الصحيح للفشل وما هي حدود النجاح؟ هذه أسئلة قد تُطرح في هذا المجال، فقد نتفق على نوعية التعريف للفشل بأنه الإخفاق في تحقيق الغاية وبلوغ الهدف، وقد نلتقي عند تعريف النجاح بأنه يتمثل في تحقيق مسعى المرء، والوصول إلى ما يطمح إليه. أما المفهوم فسوف يظل مختلفاً بين ما يسمى فشلاً أو نجاحاً، فقد يكون الفشل في مفهوم أحدنا نجاحاً في مفهوم الآخر، وقد

يتحول النجاح بالمفهوم نفسه إلى فشل، وذلك يخضع لاعتبارات عديدة يحكمها التفاوت في المعرفة والثقافة والإدراك وطبيعة النظرة إلى الحياة من خلال التكيف مع البيئة والمجتمع، فما يُعدُّ نجاحاً في بيئة أو مجتمع قد يُعدّ فشلاً في بيئة أخرى ومجتمع آخر.

ووفقاً لهذه النظرة الاعتبارية تختلف معايير الفشل ومقومات النجاح، ومع اختلاف النظرات تختلف المعايير وتتباين المقاييس حول تحديد مفهوم موحد للنجاح والفشل، وفي ضوء هذه الرؤية هل الصورة التي ينظر الناس إليها على أنها نجاح؟ هل هي حقاً كذلك تمثل صورة صادقة للنجاح، أم أنها وجه آخر من وجوه الفشل غير المنظور؟ قد يجد الإنسان فشلًا في صورة نجاح، وقد تجيء النظرة إلى نجاحه على أنه لون من ألوان الفشل.. !! والإنسان في مدارات حياته موزع بين الفشل والنجاح، تمر به حالات فشل ومحاولات نجاح، وتلك من لوازم الحياة في هذه الدنيا، وربما يكون الفشل هو الجسر الذي يؤدي إلى النجاح، ومن مقتضى هذا التصور أن الذي لا يفشل هو الذي لا يعمل، ومحطات الفشل في حياة الإنسان متعددة ومثلها النجاح، والذي لا يجرب الفشل لا يحقق النجاح.

# في المجال الاجتماعي

١- أعترف بفشلي في بناء علاقات اجتماعية واسعة، فأنا بين أفراد يفضلون العزلة الاختيارية على الانفتاح الاجتماعي بمفهومه الشامل، وأعتقد أن الحياة -على الرغم مني- قد سارت بي في الاتجاه المعاكس لآمالي وأحلامي، فمنذ تفتّح وعيي المبكر، وأنا أجد متعتي في القراءة، وتتركز هوايتي في الاطلاع، وقد نَمتْ معي هذه الهواية حتى أصبحت جزءاً من حياتي ونسقاً من سلوكي، فهل أفادتني في بناء الذات الثقافية فيما بعد أم أن الفشل هو النتيجة التي انتهيتُ إليها؟

إني وإن كنت أحمد الله سبحانه على ما تفضل به عليّ من مكانة اجتماعية إلاّ أني لا أراها غاية آمالي، ولا منتهى طموحاتي، فلقد انتهت بي الحياة على غير ما خططت وعلى غير ما أردت وعكس ما توقعت، وقد تعثرت خطواتي

في بداية الطريق، فانتقلت من فشل إلى آخر، ولكني كنت ألجأ إلى الله -عز وجل- في حالة الفشل بطلب العون منه، وفي حصول النجاح برفع الحمد له تبارك وتعالى. وقد وجدت أن الصورة المنطبعة في أذهان الكثيرين تتركز في بلوغ جاه يتحقق عن طريق منصب أو تكوين ثروة أو كليهما، والإخفاق لديهم مرتبط بعدم الوصول إلى هذين الهدفين أو أحدهما، وكأن مزايا الحياة محصورة في الوجاهة الاجتماعية والثروة المادية.

٢- والإنسان تحكمه عوامل تربوية وثقافية وبيئية، فهو يتكيف مع الأجواء التي نشأ فيها وعايشها، ومع مرور الزمن تصبح لها سطوة على تصرفاته، سواء بالانغلاق الذاتي أو بالانفراج الاجتماعي، ومن خلال التوجه الذي ينقاد إليه سلباً أو إيجاباً تتحدد مسيرته في الحياة نجاحاً أو فشلاً.

٣- ومما أعده من صور فشلي في الحياة الاجتماعية عدم حضور الاجتماعات العامة والنفور من الاحتفالات الكبيرة والدعوات الواسعة إلاّ ما اضطررت إليه تحت إلحاح واجب لا بد من أن يؤدى، وذلك ما انعكس على عدم حضوري الندوات

الثقافية والأندية الأدبية فضلاً عن اعتذاري عن المشاركات فيها، وهو فشل قادته دوافع ذاتية تُؤْثر العزلة، وتبتعد عن وهج الأضواء، وأنا أَعدّ ذلك تقصيراً يمكن أن يمثل لوناً من ألوان الفشل في الاهتمام بكل جوانب الحياة.

٤- ونتيجة لإيثار الظلال على الأضواء فقد لبثت نحو أربعة عشر عاماً أكتب مقالاً أسبوعياً باسم مستعار، ولم أعد للاسم الصريح برغبة مني، وإنما تحت إلحاح أصدقاء أعزاء، وبعد ما كتب أحد الأصدقاء مقالة في صحيفة الرياض التي أكتب فيها: كاشفاً للقارئ الاسم المستعار الذي اختفيت وراءه طيلة تلك الأعوام الأربعة عشرة.

٥- ولعل من بواعث تلك الرواسب النفسية للعزلة الاجتماعية أنني فشلت في مقاومة إغراء الشهادات، مع عدم حاجتي إليها، فأول وظيفة عملتُ بها كانت بالشهادة الابتدائية التي كان لها وزنها في حياة جيلنا المخضرم، ولكني حين رأيت أفراداً من طلائع البعثات يعودون من مصر يحملون الشهادات الجامعية التي كان لها رنين ساحر في المجال الثقافي وصدى مسموع في المحيط الاجتماعي: شدّني ذلك الرنين بجرسه العذب، وذلك الصدى بأفقه الرحب لمواصلة الدراسة لما بعد الابتدائية، فحصلت على المرحلة المتوسطة

وبعدها الثانوية العامة التي كانت بمنزلة المفتاح لدخول كلية الآداب بجامعة القاهرة.

وللقارىء العزيز أن يسألني: هل تعدّ هذا نجاحاً أو فشلاً؟ الحقيقة تكمن في اختلاف الرؤية هنا، فمن جانب قد يكون ذلك في النظرة العامة نجاحاً بالحساب المادي لكسب مؤهلات، ومن جانب آخر قد يكون فشلاً بالنسبة لمثلي ممن يرى أنه لو جرى تكريس كل تلك المدة التي أمضيتها في طلب المؤهل الجامعي: في القراءة والبحث لبلغت مالم أبلغه بتلك الشهادات، وللتدليل على عدم اهتمامي بها بعدما حصلت عليها أني قد أهملتها جميعاً، فاكتفيت من الحصول على الشهادة الجامعية بتزويدي بوثيقة تخرج وضعتها في ملفي الوظيفي، ولم أراجع الجامعة لاستلام الشهادة حتى الآن فقد أهملتها.

ومن الطبيعي ألا أهتم بالاحتفاظ بما دونها من شهادات، فهل هذا الجهد المبذول إلى جانب الوقت المهدر يُعد نجاحاً أو فشلاً؟ كل فرد ينظر من زاوية معينة، فيصنّف ما جرى على أنه نجاح أو فشل، وهو محق في تحديد رؤيته واستنتاجه بحسب توجهه ووفق واقعه.

# المجال المالي

١- أُعلن فشلي من فوق هذا المنبر الإعلامي بلا تردد في المجال المالي، فقد فشلت في أن أصنع ثروة أو ما يشبه الثروة على الرغم من أني عايشت ما أُطلق عليه (الطفرة) لكني كنت فاشلاً في الاستفادة من عطاء تلك الطفرة التي ودعناها ربما إلى غير رجعة، وقد كسب فيها كثيرون كانت تسودهم روح المغامرة أو (الفهلوة) والتفرغ لتنمية المال، ولم يواكبها الفاشلون من أمثالي الذين لم تستخفّهم صفقات الأراضي والمضاربات المالية، فانتهوا إلى فشلهم في هذا المجال.

٢- وللازمة هذا الشعور لي، فقد امتنعت عن المساهمة في الصفقات المالية ولا سيما البنوك الربوية والإيداع فيها بقصد الحصول على فوائد مالية، وامتنعت كذلك عن المساهمات التي لم يتضح لي فيها قول صحيح، أو تبين لي أن تبريرها يعتمد على رأي مرجوح.

٣- وهذه الحساسية في التعامل المالي التي من نتائجها الفشل في تكوين ثروة: تعود إلى البيئة الشديدة المحافظة التي نشأت فيها، فقبل نصف قرن كانت بيئة منطقة نجد بالذات كأنما هي امتداد لعصر السلف الصالح، فلم تُفسد فِطَرهم السليمة التراكمات الصاخبة لحضارة هذا العصر، ولم تلوث ضمائرهم النقية تقلبات الأجواء الاجتماعية الحديثة.

كأنما نجد في عهدهم روائح عصر النبوة بأنواره الرائعة، ونلمس في سلوكهم سلوك الصحابة الكرام، فقد عاشوا أتقياء بررة، نهجهم إحياء الليل بالصلاة وعمارة النهار بالصيام، فقد كنت أصحو أحياناً، وأنا طفل صغير آخر الليل، فأجد الكبار من حولي ركعاً سجداً يبتغون رضوان الله ويخشون عذابه، ومع ما هم عليه من ورع وتقوى، فقد كانوا أشدّ خشية لله وأكثر خوفاً منه سبحانه، حتى لتصدق عليهم الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] جاء في تفسيرها: يُؤْتون الإخلاص ويخافون ألا يُقبل منهم، وحين سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذه الآية بقولها: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا، يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون

ويصلّون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات (تفسير القرطبي).

٤- وفي هذا الجو الروحاني استقر في وعيي أن المال الكثير مدعاة للحساب العسير، وبهذا الإدراك فشلتُ في جمع المال؛ لأني لم أركض في الطرقات الموصلة إليه والممرات المؤدية للكسب المشبوه، ولأن لدي من اليقين ما يؤكد لي أني لن أحصل من المال إلاّ على ماقُدّر لي مهما حاولت من بذل جهد وإضاعة وقت، ولذلك تؤنسني مثل هذه العبارة: (فاز المخفّون يوم القيامة) فإذا كان المسلم مثلي مقصراً في العبادة: من واجبه ألا يضيف إلى التقصير التعبدي حساباً مالياً ينتظره، ليجيب عن السؤال المتوقع: من أين اكتسبه وكيف أنفقه؟

٥- وإذا كنت أؤكد فشلي الواضح في جمع المادة وتنميتها فإني أحمد الله سبحانه أن لم يجعلني خادماً للمال، وهي في محصلتها متاع زائل في الدنيا وعذاب دائم في الآخرة، وبحكم هذا الواقع يمكن أن يُطرح هذا التساؤل: هل تكوين ثروة مالية يُعدُّ نجاحاً أو فشلاً؟ الجواب: هنا يعود إلى طبيعة النشأة وتكوين الذات.

# في المجال المهني

١- إذا كان القصد بالمجال المهني العمل الوظيفي فإن الموظف أو صاحب المنصب كبيراً كان أو صغيراً لا يمكنه الحكم لصالحه ولا يُقبل منه ذلك، وإنما الحكم له بالنجاح أو عليه بالفشل يصدر ممن يتعامل معهم من خلال عمله أو طبيعة وظيفته.

أما بالنسبة لمن يملك موهبة أدبية فإن الوظيفة جناية على أدبه؛ ذلك أنها تُعدّ قيداً ثقيلاً على ممارسة الموهبة الأدبية، فإنها تحدّ من حرية الأديب وتُقيد تصرفاته، وتعطل فاعليته الفكرية في مجال العطاء الثقافي؛ لأنها تستهلك الكثير من وقته وتسلبه خصوصيته. هذا بالنسبة لمن لديه موهبة فكرية أصيلة، والمفكر أو الكاتب إذا تحرر من سلطة الوظيفة وسطوتها فإنه يستطيع التفرغ للإبداع

فـي إنتاجه؛ لأن الوظيفة تسـتدرجه للتفاني في وجاهتها وسـلطتها، فلا يجـد وقتاً لمزاولة العمـل الفكري والمتابعة الثقافيـة، إلا وقتاً محـدوداً ومتابعة باهتـة لا تلبي رغباته ولا تجاري موهبته.

٢- لعلـي مـن بين قلة مـن الأفراد الذيـن ينظرون إلـى الدنيا مـن منظـور مختلف عـن النظرة السـائدة لـدى الكثيرين، والمتمثلـة في تكييف النجاح والفشـل علـى أنه محصور في الوجاهـة التي عن طريق المنصـب أو المال، وإذا كان الإخفاق فيهمـا معـاً فشـلاً فإني أعد نفسـي مـن الفاشـلين، فأنا لا يسـعدني أن يرتبط اسمي بالمنصب، وإنما الذي يسعدني أن يرتبط اسمي بالأثر الثقافي الذي أنتجه، فوصفي بالكاتب أفضل عندي من وصفي بلقب الوظيفة.

٣- إذا كانـت الوظائـف التي عملت فيها فرضـت عليّ نوعاً من إقامـة بعـض الصلات الاجتماعيـة فإن النزعـة الانطوائية تشـدني فتحوّل مجرى حياتي إلى فشـل في نظر الآخرين، وهو ما أعده نجاحاً في نظري؛ لأن العزلة الاختيارية تهيئ لـي المزيد مـن القراءة والتوسـع في الاطـلاع، وتمكنني من

متابعة الإصدارات الحديثة، ولو أني استجبت لكل مطالب الاندماج الاجتماعية بحكم العمل الوظيفي لما توفر لي وقت للتفكير والكتابة، ولكان وقتي موزعاً بين تلك المطالب لملاحقتها والوفاء بكثير من العادات التي أصبحت في حكم الالتزامات والواجبات.

٤- ومن واقع نشأتي التي سلفت الإشارة إليها، فأنا لم يعد يهمني المنصب الوظيفي، ولمعان الجاه الدنيوي، وإذا كان ذلك يمثل نجاحاً لدى كثيرين فإني لا أعده كذلك، وربما صنفته في قائمة الفشل، ولا سيما إذا جنح بصاحبه إلى الغرور والاستعلاء.

وإذا تجاوزتُ الدائرة الاجتماعية التي أعيش داخلها، فقد ينظر إليّ أفراد آخرون لا يعرفون حقيقتي فيضعون علامات تعجب تجاه ما يشبه العزلة التي اخترتها والتي كان من نتائجها ضعف صلاتي الاجتماعية (!!). فأنا ممن يُؤثرون الاحتفاظ بقلّة من الأصدقاء الأوفياء دون الاهتمام بتوسيع دائرة الصداقة إذا كانت لا تقوم على المبادئ، وإنما ترتكز على المصالح.

وقد جاءت مسيرتي الحياتية مخالفة لما أحبه من استقرار، وما أنشده من هدوء، وما أريده من وضع مناسب، وهذا يدل على أن الإنسان يواجه في دنياه أعاصير تعصف بآماله، وتيارات تحوّل اتجاهاته، وتحول دون تحقيق رغباته.

٥- ولو تأملتُ مسيرة حياتي لوجدت أن محطات الفشل ربما كانت أكثر من محطات النجاح، وأعتقد أن الحياة قد سارت بي - على الرغم من إرادتي - نحو الاتجاه المضاد للأماني التي كنت أتمناها والطموحات التي كنت أسعى إليها، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لعدّلت مسيرة حياتي إلى مجال أفضل، لا من الناحية المادية الدنيوية التي لا أهتم بها، وإنما من الناحية التي تهمني جدًّا، وهي الناحية الثقافية الفكرية، فأنا لا أعدُّ الإخفاق في عدم الحصول على المال فشلًا، وإنما أعدُّ الإخفاق في عدم بلوغ المستوى الأعلى من الحياة الثقافية والفكرية هو الفشل.

وعلى هذا الاعتبار فإني أُصنّف نفسي في عداد الفاشلين، ولا يحول هذا التصور بين المرء وسعيه إلى ما هو أفضل ليحقق معنى وجوده في هذه الحياة، والإنسان مهما رسم

لنفسه من مسارات في هذه الدنيا، ومهما حاول أن يضع الإطار الذي يحتضن ألوان نشاطه، والنسق الذي تدور فيه تحركاته، فإن إرادة أقوى من إرادته، توجّهه إلى مسارات أخرى قد لا يكون له يد في صنعها ولا رأي في اختيارها، تلك إرادة الله تبارك وتعالى.



# خاتمة

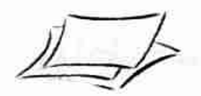
أشــرتُ في الافتتاحية التي كانت مدخلاً إلى هذه الذكريات: إلى أن ما أُقدمه في هذا الصدد لا يُمثل في تقديري سيرة حياة، ولا يرســم مســيرة مواطن تمتدّ خُطاه نحو المرحلة الثمانينية من العمر، وإنما حسبه أن يُمثل خطوطاً عريضة لمسار حياة فرد، لا تُشكل مسيرته إضافة جديدة لحياة لها امتداداتها ومنحنياتها وتوجهاتهــا، ورصد خُطاها وأخطائِها، وإنما هي حياة عادّية كأي فــرد مــن أبناء هــذا الوطن. ليس لــه خصائص ينفــرد بها عَمّن سواه، أو يتميز بها عما عداه.

والباعث لتدوين هذه الخواطر المرسـلة، والسبحات الذهنية الذاتيّة التي تنسـكب في هذه السـطور: أنها كانت أمشاجاً تسبح في محيط الذاكرة الواهنة، وتستدعيها المناسبة الطارئة، وباعثها إلحاح عدد من الأصدقاء المحبين لتدوينها؛ لتكون صالحة للنشر.

وذلك عندما كنتُ أتطرّق في بعض أحاديثي إلى شيء من ملامح بعض المواقف ومجريات الأحداث. مما له صلة مباشرة بمسيرتي الحياتيـة، فكان كثير من الأصدقـاء يقترح إخراجها من الدائرة المغلقة في الذاكره إلى جوّ مفتوح من النشر.

وقد اسـتجبت لهذه الرغبة الأخوية المؤطرة بإطار الصداقة الدائمة، فكانت هذه الذكريات التي اسـتوحيتُها من الذاكرة، وإن كنتُ لم أبلغ بها مسـتوى السـيرة الذاتيّـة المكتملة الإطار، وإنما حسـبها أن ترسـم معالم عريضة لحياة محدودة، وأرجو أن أكون قد اسـتطعت أن أُقدم لأصدقائي الأعزاء ما يتفق مع تطلعاتهم نحو مسار حياة فرد منهم.

والله ولي التوفيق والسداد،،






كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية إذ ذاك في منتهى البساطة، بل في غاية الخشونة والتقشف، فلم أُولد في مِهاد من حرير، ولا تلقفتني العناية الطبية في مستشفى مرموق؛ تستقبلني فيه غرفة عمليات مجهّزة بأدوات التعقيم الصحي، وأجهزة الراحة والرفاهية للمواليد المحظوظين، وإنما ولدتُ كما يولد عامة المواطنين، استقبلتني حَفنة من تراب الوطن الذي تشكّل منه تكويني، وانصهر فيه كياني، واختلطت به مشاعري، وتشكّل فيه وعيي، وعلى هذه الأرض درجت، وفي رحابها تفتّحت عيناي على الدنيا، وعلى أديمها مشيت، وفي بيئتها نشأتُ، وأول ما وعيته أن كياني المزوج بتراب هذا الوطن الكبير: يجعلني لا أُقيم وزناً للأقليمية الضيقة، أو الانحياز الشاطح لبلدة دون أُخرى داخل الوطن؛ لأني أرى في هذا التمايز المقيت تعطيلاً للإحساس الوطني الشامل للوطن بكامل ترابه واتساع نطاقه، ومن هنا كانت نظرتي الواقعية متشبّعة بالروح الوطنية المتسامية على التجزئة والتفرقة، فمشاعري مزروعة في أرض وطني الحبيب الذي تحمل رايتهُ شعار التوحيد، وأحاسيسي مرتبطة بمجتمعه الكبير.

ISBN:978-9960-54-916-3




موضوع الكتاب: مذكرات

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com